"كُتّاب الدواوين وأثرهم في الحياة السياسية في العصر الأيوبي"

(٥٦٧ هـ / ١١٧١ مـ - ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م)

دكتور

عبد الرحمن عبد الحميد عبد العزيز حماد

مدرس التاريخ الإسلامي بكلية اللغة العربية بالقاهرة

جامعة الأزهر

١٤٣٧ هـ / ٢٠١٦ مـ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً كما أمر، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خير البشر، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين... وبعد

فإن القرن السادس الهجري تميَّز بأنه شهد يقظة للعالم الإسلامي، والتي تبلورت في حركة الوحدة الإسلامية التي بدأت على يد عماد الدين زنكي، وحمل لواءها من بعده ابنه نورالدين محمود زنكي، ثم أينعت هذه الوحدة وآتت ثمارها على يد القائد صلاح الدين الأيوبي، وقد كانت هذه الوحدة وليدة تلك الأحداث الكائنة آنذاك، فالحملات الصليبية بدأت كالسيل المتدفق نحو ديار الإسلام، ونجحت في تأسيس عدة إمارات في بلاد الشام لتكون محور انطلاقها ضد المسلمين في كل مكان، لذلك هبَّ هؤلاء القادة يحدوهم الأمل في تخليص ديار الإسلام من هذا المستعمر الذي أخذ في الالتفاف حول جسم الأمة الإسلامية، ولقد تعاونت الشعوب مع قادتها في تحقيق هذا الهدف –وهو طرد الصليبيين من ديار الإسلام–، ومن ثم شارك في الحياة السياسية جُلّ فئات المجتمع في العصر الأيوبي، سواء أكانوا علماء أم فقهاء أم شعراء أم كُتّاب الدواوين في إدارات الدولة المختلفة بأقلامهم و آرائهم السديدة في مجالس الحرب والمشورة، ولذلك فإن كل فئة من هذه الفئات تحتاج إلى دراسة عن دورها في ذلك العصر، ومن هنا وقع اختيار الباحث على هذا الموضوع الذي جعله تحت عنوان: "**كُتّاب الدواوين وأثرهم في الحياة السياسية في العصر الأيوبي**

(٥٦٧ هـ / ١١٧١ م - ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م)".

وقد قسَّمت هذا البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، ففي المقدمة تناولت أسباب اختيار الموضوع والخطة التي اتبعتها في دراسته، ومنهج البحث فيه مع تسليط الضوء على أهم المصادر والمراجع التي أفاد منها البحث.

وقد جاء المبحث الأول تحت عنوان: "نبذة عن الوظائف الديوانية في العصر الأيوبي"، وتركز الحديث فيه حول أهم الدواوين في ذلك العصر من خلال كتابات اثنين من أهم كُتّاب ذلك العصر آنذاك وهما: الأسعد بن مماتي (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م)، وفخر الدين عثمان النابلسي (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م)، وكان الأخير معاصراً للملك الكامل محمد بن صلاح الدين (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م – ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧ م)، كما تناول أيضاً الإشارة إلى الهيكل التنظيمي لتلك الدواوين ومهامِّها في الدولة آنذاك.

أما المبحث الثاني فهو بعنوان: "الدور السياسي لكُتّاب الدواوين في العصر الأيوبي"، وقد ذكرت فيه المشاركات السياسية لكُتّاب الدواوين منذ تأسيس الدولة الأيوبية وما تبع ذلك من مشاركة في العمل السياسي إلى جوار السلاطين تارة، أو في مجالس الحرب والمشورة تارة أخرى، وكذلك دور الكُتّاب في أوقات الأزمات السياسية بين ملوك البيت الأيوبي.

أما المبحث الثالث فجاء بعنوان: "دور كُتّاب الدواوين في

السِّفارة في العصر الأيوبي"، وقد تركز الحديث فيه حول دور الكُتّاب في السِّفارة داخلياً بين ملوك الأيوبيين، وخارجياً مع مملكة الروم المجاورة للدولة الأيوبية، وكانت هذه السِّفارات على درجة كبيرة من الأهمية، فقد تكون بالصلح بين بعض ملوك الأيوبيين، أو التدخل لإنهاء المنازعات فيما بينهم، وفي بعض الأحيان لتوكيد الأيمان بالولاء بين ملوك البيت الأيوبي وخارجه، مما كان له أبلغ الأثر سياسياً واجتماعياً على الأسرة الأيوبية.

منهج البحث:

أولاً: اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي مع الاستشهاد بالنصوص التاريخية الأصلية وتحليلها واسقاطها على أحداث الدراسة.

ثانياً: ترجمت للأعلام والمدن والمصطلحات الواردة في البحث عند ذكرها للمرة الأولى.

ثالثاً: قارنت التاريخ الهجري بما يوافقه من التاريخ الميلادي.

رابعاً: خرّجت الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في ثنايا الدراسة.

• أهم المصادر التي استقيت منها مادة البحث:

(وهي مرتّبة تاريخياً على حسب سني الوفاة الأقدم فالأحدث)، ويأتي في مقدمة هذه المصادر كُتُب العماد الأصفهاني الكاتب (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) وهي "البرق الشامي، ومختصره "سنا البرق الشامي"، والفتح القسي في الفتح القدسي"، وتأتي أهمية هذه الكتب من حيث معاصرة

صاحبها ومعايشته للأحداث التاريخية في ذلك العصر، وكونه كان قريباً من سلاطين الأيوبيين بحكم عمله كأحد أكبر الكُتّاب في العصر الأيوبي، كما يعتبر كتاب "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م)، من أهم الكتب التي أفادت منها هذه الدراسة فهو مصدر معاصر للأحداث، أيضاً يأتي كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" لابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) من أهم مصادر الدراسة، فمؤلفه صحب صلاح الدين بالشام مدة، ثم انتقل إلى حلب وعمل في خدمة ملوكها من الأيوبيين، كما يُعدّ كتاب "زبدة الحلب من تاريخ حلب" لابن العديم (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م) من أهم مصادر هذا البحث، فمؤلفه عاصر الأحداث التاريخية في العصر الأيوبي منذ شبابه، وكان يحضر مجالس الملك الظاهر غازي الذي كان يقرّبه، ثم عمل بالكتابة الديوانية في عهد الملك العزيز محمد بن الظاهر وارتقى لمرتبة الوزارة واختص بالسّفارة عن ملوك حلب داخلياً وخارجياً، ثم يأتي كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين" و "الذيل على الروضتين" لأبي شامة (ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م) وهو في مقدمة الكتب المعاصرة لنهاية الدولة الأيوبية ، مما جعل لكتابيه أهمية كبيرة في هذا البحث، أيضاً أفادت الدراسة من كتاب "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" للمؤرخ ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧ م)، وهو من أهم الكتب اللاحقة التي أرّخت للعصر الأيوبي من خلال المصادر المعاصرة للحقبة الأيوبية ،لاسيما مؤلفات ابن العديم، هذا بالإضافة إلى كثير من المصادر والمراجع التي أفاد منها هذا البحث، وهي مثبتة في قائمة المصادر والمراجع.

وختاماً: أسأل الله –تعالى– أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه

الكريم، ولايفوتني أن أتوجه بالشكر والتقدير لكل من أسهم في اخراج هذا العمل المتواضع على هذا النحو، فما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو نسيان فأستغفر الله منه، وهو حسبي ونعم الوكيل.

د. عبد الرحمن عبد الحميد حماد

مدرس التاريخ الإسلامي بكلية اللغة العربية بالقاهرة

جامعة الأزهر

غرة رجب ١٤٣٧ هـ / ٢٠١٦ م

(المبحث الأول)

"نبذة عن الوظائف الديوانية في العصر الأيوبي"

(٥٦٧ هـ / ١١٧١ م -٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م)

عمل صلاح الدين الأيوبي منذ أن ثبتت أقدامه في مصر على تقويض أركان الدولة الفاطمية في نظامها ونُظُمها، وقد بدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد[١] الفاطمي، فأبعد قواد جيش العاضد ورجال قصره عن القاهرة، واستولى على اقطاعاتهم ومنحها لقواده هو ليضمن ولاءهم، ثم أتبع ذلك بخطوة غاية في الأهمية حيث أنشأ المدارس السّنية لمحاربة المذهب الشيعي آنذاك، ثم كانت الخطوة الأخيرة في القضاء على الدولة الفاطمية، إذ أمر صلاح الدين في المحرم

---

(١) العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد المجيد، ولد في المحرم سنة ٥٤٦ هـ، وبويع بالخلافة يوم وفاة الفائز في السابع عشر من رجب سنة ٥٥٥ هـ ، و كان العاضد سمحاً كريماً، توفي يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ. (الذهبي "شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م" : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق / عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثانية سنة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، ج ٣٨ ص ١٦٨، اليافعي "محمد بن عبدالله بن اسعد اليافعي (المتوفى سنة ٧٦٨ هـ)": مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه/ خليل المنصور، دار الكتب العلمية –بيروت– الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م، ج ٣ ص ٢٨٨.)

سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١ م بقطع الخطبة للخليفة العاضد الفاطمي ودعا للخليفة المستضئ[١]بالله العباسي في بغداد، وبذلك تم القضاء على آخر خيط في حياة الدولة الفاطمية بعد ما حكمت مصر أكثر من قرنين من الزمان (٣٥٨ – ٥٦٧ هـ – ٩٦٨ – ١١٧١ م)، وعادت مصر ولاية عباسية مرة أخرى يحكمها صلاح الدين الأيوبي نيابة عن سيده نور الدين محمود زنكي بالشام[٢].

---

(١) الخليفة المستضئ بالله الحسن بن يوسف المستنجد بالله العباسي، ولد في شعبان سنة ٥٣٦ هـ ، وبويع بالخلافة يوم وفاة أبيه المستنجد بالله في سنة ٥٦٦ هـ، وأمر المستضئ برفع المكوس، ورد المظالم وأظهر العدل في الرعية، توفي مستهل ذي القعدة سنة ٥٧٥ هـ. (ابن الجوزي "أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد المتوفي سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م" : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق / محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م، ج ١٨ ص ١٩٠؛ الذهبي : تاريخ الإسلام، ج ٣٩ ص ٢٦؛ الكتبي "محمد بن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ": فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق د/ إحسان عباس، دار الثقافة –بيروت–، ج ١ ص ٣٧٠).

(٢) ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د/ جمال الدين الشيال، د/ حسنين محمد ربيع ، راجعه / د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دارالقلم، القاهرة، ج ١ ص ٢٠٠، المقريزي (تقي الدين أحمد بن على المتوفى سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) : اتعاظ الحنفا بأخيار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة – سنة ١٩٩٦ م، ج ١ =

بعد أن قضى صلاح الدين على نظام الدولة الفاطمية، عمد إلى القضاء على نُظُمها أو مخالفتها في كثير من الأحيان، وفي هذا يقول القلقشندي: "واعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخَلَفتها في الديار المصرية، خالفتها في كثير من تراتيب المملكة، وغيّرت غالب معالمها، وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية عماد الدين زنكي بالموصل، ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام[١]"، ولذا أمر صلاح الدين بإزالة أسماء خلفاء الفاطميين المكتوبة على محاريب مساجد القاهرة[٢]، كما أمر صلاح الدين بإلغاء "ديوان التحقيق"، وهو من أكبر الدواوين في العصر الفاطمي، فقد كانت مهمته مقابلة المصروفات والايرادات الفعلية في مختلف دواوين الدولة بالمبالغ الرسمية في السجلات[٣]، ولم يقتصر الأمر على إلغاء بعض الدواوين الفاطمية، بل

---

٣ ص ص ٣٢٥ –٣٢٧ ؛ د/ جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف – القاهرة، ج ٢ ص ص ٢٢–٢٣.

(١) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي المتوفى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، قدم له د. فوزي محمد أمين، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية، الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة – سنة ٢٠٠٤ م ، ج ٤ ص ٥ .

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، قام بنشره د. محمد مصطفى زيادة، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة – القاهرة – ج ١ ق ١ ص ص ٤٣ – ٤٤.

(٣) النابلسي (فخر الدين عثمان بن إبراهيم توفي سنة ٦٨٥هـ) :كتاب لمع القونين المضيّة في دواوين الديار المصرية، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – =

استحدث صلاح الدين وظيفة "نائب السلطنة[١]" وهي خطوة مهمة نحو مخالفة النظم الفاطمية من جهة، ولإضعاف "الوزارة" التي كان لها شأن كبير في العصر الفاطمي من جهة أخري[٢].

• الدواوين في العصر الأيوبي:

أما عن الدواوين التي استقرت في عصر الدولة الأيوبية فهي كثيرة، تحدث عنها اثنان من كبار نظار الدواوين في العصر الأيوبي

أولهما: الأسعد بن مماتي (توفي سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م)،وقد ألف كتاباً نفيساً أسماه "كتاب قوانين الدواوين" شرح فيه المؤلف النظم

ص ٣٦ ، د. حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، سنة ١٩٦٤ م، ص ٨٣.

(١) أنشأ صلاح الدين وظيفة "نائب السلطنة" لإضعاف سلطة الوزير، فقد كان للوزارة شأن كبير زمن الفاطميين، كما كان صلاح الدين في حاجة إلى من يخلفه في مصر عند خروجه لقتال الصليبيين بالشام، فاستحدث هذه الوظيفة، وكان من مهام النائب أنه يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان، ويكاتبه نواب الممالك فيما تكاتب فيه السلطان، ومقره دار النيابة بالقلعة. (ابن العمرى "شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله المتوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م" : التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة – مصر – سنة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٤ م، ص ٦٥، القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٤ ص ص ١٦ – ١٧).

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية – القاهرة – سنة ٢٠٠١ م ، ص ١٥٧.

الحكومية والقوانين في عصر الدولة الأيوبية حتى وفاته، وثانيهما: فخر الدين عثمان بن ابراهيم النابلسي

(المتوفى سنة ٦٨٥هـ)وكان معاصراً للسلطان الكامل محمد[١]الأيوبي (٦١٥ – ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ – ١٢٣٧ م)، وقد ألف كتاباً شهيراً أسماه "كتاب لمع القوانين المضيّة في دواوين الديار المصرية"، وهو بمثابة مشروع اصلاحي للدواوين المصرية في عصر المؤلف قدّمه للسلطان الكامل محمد الأيوبي في سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م، ومن خلال هذين الكتابين وغيرهما يمكن معرفة أهم الدواوين والوظائف الإدارية في العصر الأيوبي كما يلي:

---

(١) الملك الكامل محمد بن العادل محمد بن أيوب، ولد في شهر ربيع الأول سنة ٥٧٦ هـ ، واستقل بملك مصر بعد وفاة أبيه سنة ٦١٥ هـ ، ومن آثاره الحسنة أنه أمر ببناء قُبّة عظيمة على ضريح الإمام الشافعي، ورتب له وقفاً جيداً، وكان ملكاً فاضلاً عادلاً مهيباً، توفي بدمشق سنة ٦٣٥ هـ. (ابن خلكان "شمس الدين أحمد بن محمد المتوفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م" : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م، ج ٤ ص ١٧١؛ الذهبي : تاريخ الإسلام، ج ١٤ ص ١٨٥، ابن تغري بردي "جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ / = ١٤٦٩ م" : مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة، تحقيق د/ نبيل محمد عبد العزيز ، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧ م، ج ٢ ص ١٣).

١- **ديوان الإنشاء**:وهو من أهم دواوين الدولة الأيوبية وأكثرها خطورةً نظراً للمهام المنوطة بصاحبه، فهو يتسلّم الكتب الواردة إلى السلطان ويعرضها عليه ويكتب أجوبتها، ويستشيره السلطان في أهم أموره ولايحجب عنه شيئاً، وهذا أمر لايصل إليه غيره، ويشترط في صاحب ديوان الإنشاء: أن يكون عالماً أديباً بليغاً، له القدرة على حلّ المنظوم ونظم المنثور، والاستشهاد بما يحتاج إليه من القرآن الكريم والحديث الشريف وأخبار الملوك وأيام العرب وغيرها من الفنون[١].

٢- **ديوان بيت المال**:وهو أعظم الدواوين، إذ هو المنوط به التصرف في أموال الدولة قبضاً وصرفاً، لذلك اشترط في ناظر بيت المال أن يكون رئيساً جليل القدر، عالماً بالحلال والحرام، موصوفاً بالحزم والعزم والأمانة وحسن التدبير، متيقظاً لاستخراج الأموال وتحصيلها إلى بيت المال في أوقاتها، هذا بالإضافة إلى أهليته لاختيار من يصلح للخدمة في فروع عمله[٢].

٣- **ديوان الجيش**:وهو المنوط به التحدّث في أمر الإقطاعات بمصر و الشام، والكشف عنها، ومشاورة السلطان عليها وأخذ خطّه، وهي وظيفة جليلة رفيعة القدر، لذلك يشترط في ناظر "ديوان الجيش" أن يكون حسن

---

(١) النابلسي: لمع القوانين المضيّة في دواوين الديار المصرية، ص ص ٢٤ – ٢٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى ، ج ٥، ص ٤٦٤.

(٢) النابلسي: لمع القوانين ، ص ص ٢٨ – ٢٩ ؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣ ص ٣٣٨.

التدبير، فإن مبنى ديوان الجيوش على حسن التدبير بإرضاء الجنود بما يُقطعونه، بحيث يجمع بين رضا الأجناد بكفايتهم وتوفير ما يمكن توفيره للديوان، كذلك ينبغي أن يتصف صاحب ديوان الجيش بالمعرفة والأمانة، وأن يكون كبير القدر في نفسه وعند السلطان وجيهاً عن أمراء الدولة، فهم مع جلالة قدرهم يحتاجون إلى مخاطبته والتلطُّف به لأجل إقطاعاتهم وأجنادهم وجلب ما فيه مصلحتهم ودفع المضرّة عنهم، حيث إن هذا الديوان يتعلق بالأجناد والأمراء وما يختصون به من الرواتب والثياب والحُلي والخيول والعلوفات وغيرها[١].

٤-**ديوان النظر**:وهو أجل دواوين الأموال، وصاحب "ديوان النظر" يسمى "ناظر الدواوين" وهو مأخوذ إما: من النظر الذي هو رأي العين، لأنه يدير نظره في أمور ما ينظر فيه، وإما: من النظر الذي هو بمعنى الفكر، وانقسمت أعمال هذا الديوان إلى قسمين، **أحدهما**: الإشراف العام على الشئون المالية من ايراد و منصرف في مختلف الدواوين المركزية في القاهرة، **وثانيهما**: الإشراف على الأحوال المالية في مختلف الأعمال المصرية، وله الولاية والعزل ولايعترض فيما يقصده أحد من أرباب

---

(١) النابلسي: لمع القوانين، ص ٢٣، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤ ص ص ٣٠ – ٣١ ؛ المقريزي: الخطط المقريزية ، تحقيق د/ محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧ م ، ج ٢ ص ١٤٦.

الدولة[١].

٥-**ديوان التحقيق**:وهذا الديوان كما يتضح من اسمه كانت له الصفة الرقابية على كافة دواوين الدولة، فكانت مهمته مقابلة المصروفات والإيرادات الفعلية في مختلف الدواوين على المبالغ الرسمية في سجلات الدولة، وكان يطلق على "ديوان التحقيق" في العصر الفاطمي أحياناً اسم "ديوان المجلس"، غير أن صلاح الدين الأيوبي ألغى هذا الديوان، وأبقى على وظيفته المجلسية لضرورة الرقابة على الدواوين، فكان السلطان الأيوبي يعقد مجلساً يحضره نُظّار ورؤساء الدواوين من أجل تقدير أموال الدولة ومقابلتها بالمصروفات العامة[٢].

ونظراً لأن الدولة الأيوبية كانت تتصف بنوع من الازدواج في الإدارة المالية؛ وذلك لسياستها النقدية والاقطاعية في آن واحد، فقد تطلّب ذلك وجود دواوين مركزية كبرى في القاهرة، وأجهزة أخرى صغيرة بمختلف الاقطاعات بالأقاليم، وكان لكل من هاتين الناحيتين الإداريتين القيام بشئون الإيراد والمنصرف في الدولة، لكن الإشراف العام كان للإدارة المركزية بالعاصمة، ولهذا كان لكل هيئة من هذه الهيئات عدد من

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٤٦٥ ؛ المقريزي: الخِطط المقريزية، ج ٢ ص ١٤٥، د/ حسنين محمد ربيع: النظم المالية في مصر، ص ٨١.

(٢) النابلسي: لمع القوانين، ص ٣٦ ؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣ ص ٤٩٣؛ المقريزي: الخطط المقريزية ، ج ٢ ص ١٤٥؛ حسنين محمد ربيع: النظم المالية، ص ٨٣.

الموظفين ونُظّار الدواوين ونوابهم في داخل الدواوين وخارجها بمختلف الأقاليم يمكن توضيحها كما يلي:

١. الناظر:و هو المسئول الأول (الرئيس) عن كل ما يجري في الديوان، ويرجع إليه جميع الموظفين، ولابد من توقيعه الرسمي على جميع الأوراق الرسمية في الديوان، هذا بالإضافة إلى إحاطته بجميع ما يرد إلى الديوان من أوراق خارجية، إذ هو المشرف على الإيراد والمنصرف في الديوان، وله نسخة من الحساب الخاصة بالمتحصلات والمصروفات والبواقي والفائض والمتأخرات، فهو المسئول على كل ما يتم في ديوانه من خلل[١].

٢. متولى الديوان:وهو المسئول الثاني في الديوان، إذ هو المشرف على تنفيذ تعليمات،"الناظر" فيما يختص بالإيرادات والمصروفات في الديوان، ولابد أن يكون ملماً بأصول المعاملات في ديوانه، أما الفروع فهي مردودة إلى الكُتّاب[٢].

---

(١) ابن مماتي (الأسعد بن مهذب بن زكريا الكاتب المصري المتوفي سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م): كتاب قوانين الدواوين، جمعه وحققه / عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي – القاهرة – ص ٢٩٨، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٤٦٥.

(٢) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٢٩٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٤٦٦.

٣. المستوفي:وهو الشخص الثالث في الديوان – بعد الناظر و متولى الديوان – ويتولى ضبط سير الأعمال اليومية بالديوان ومراقبة الموظفين، كما أنه يقوم بتبليغ متولى الديوان على ما يجب تحصيله من الأموال في أوقاتها، ويراجع ما يرد عليه من حساب ويستوفيه، ولايؤاخذبشيء عُمِل في مجلسه مالم يكن توقيعه عليه محرراً بالتاريخ[١].

وهؤلاء الموظفون الثلاثة (الناظر – متولى الديوان – المستوفى) همالمسئولون عن حركة الديوان، وما عداهم كَتبة يساعدونهم في أعمالهم الكتابية، أو عُمّال يأتمرون بأمرهم، ويأتي في مقدمة هؤلاء المُعِين[٢]والنّاسخ[٣]والمشارف[٤]والعامل[٥]والكاتب[١]والجهبذ[٢]والماسح[٣]

---

(١) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٠١ ، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٤٦٦.

(٢) المُعِين: كاتب بين يدي المستوفى لمساعدته في أعماله. (ابن مماتي : قوانين الدواوين، ص ص ٣٠١ – ٣٠٢ ؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج ٢ ص ١٤٨).

(٣) النَّاسخ: كاتب منوط به نسخ الأوراق الرسمية بالديوان قبل تصديرها، فضلاً عن نسخ صورة من المراسلات الواردة إليه. (ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٠٢؛ حسنين محمد ربيع : النظم المالية، ص ٨٥).

(٤) المشارف: وهو موظف في عهدته جميع المتحصلات المالية بعد ختمها، وتكون تحت حوطته. (ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٠٢).

(٥) العامل: أحد الكُتّاب بالديوان، ومهمته كتابة الحسابات الخاصة بديوانه واعتمادها بخطه بالصحة والموافقة، وكذلك عمل حسابات البواقي لمن عليه =

والخازن[٤]، وغيرهم من الموظفين الذين تتشابه أعمالهم مع أعمال الموظفين السابقين[٥].

شيء من المال للدولة، ويخضع في عمله للمشارف. (ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٠٣، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٤٦٦).

(١) الكاتب: وهو يشبه العامل في وظيفته، ويكون على دراية كافية بالمتأخرات في البلاد من الأموال والغلات، بحيث تستعين به الدوله في تقدير الإيرادات في حالة عدم وجود العامل. (ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٠٣، حسنين محمد ربيع: النظم المالية، ص ٨٥).

(٢) الجهبذ: موظف بديوان المال مهمته تسجيل ما يتحصله الديوان من ا لغلات يومياً، كما يقوم بتدوين حصيلة الأموال وتحرير الايصالات حسب أوامر رؤسائه المتقدمين. (ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٠٤).

(٣) الماسح: من موظفي ديوان المال، فإن طبيعة الإدارة المالية ذات السياسة النقدية والاقطاعية في العصر الأيوبي، كانت تستلزم وجود هذا الموظف، ومهمته قياس الأراضي الزراعية التابعة لديوانه وعمل الايصالات الخاصة بكل اقطاع من الأرض. (ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٠٥؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥ ص ٤٦٦).

(٤) الخازن: وهو المنوط به استلام الغلات وخزنها وصرفها، ويلزمه عمل حساب ما يتحصله من الغلات، ويطالب بما لعله يَقصُر منها. (ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٠٦؛ حسنين محمد ربيع: النظم المالية، ص ٨٦)

(٥) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ص ٢٩٧ – ٣٠٧ ؛ النابلسي: لمع القوانين، ص ٢٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ص ٤٦٥ – ٤٦٦.

والجدير بالذكر أن هذا النظام الإداري في الدواوين ظل معمولاً به في العصر الأيوبي حتى سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م، فقد رأى الملك الكامل محمد ضرورة اصلاح الجهاز الإداري في الدولة، لذلك استدعى أحد أعظم الموظفين الإداريين في عصره وهو فخر الدين عثمان بن إبراهيم النابلسي، وعيّن له اثنين من المستوفين لمعاونته فيما يُكَلَّف به قائلاً : "ما أحضرتكم إلا لترتيب الدواوين على وضع حسن فإني أراه مبدداً، وكل وقت يتعب خاطري في الفكرة فيه، وتدخل إليّ به استدعاءات بخط من لا أعرفه، وما جرت العادة أن يكون صاحب ديوان إلا من أعرفه وأثق به وأرضاه[١]..."

وقد نهض النابلسي في مهمته، وقدّم للكامل محمد مشروعاً اصلاحياً للدواوين آنذاك، وهذا المشروع هو كتابه المسمى: "لمع القوانين المضيّة في دواوين الديار المصرية"، و هذا الكتاب يشتمل على خمسة أبواب، تحدث المؤلف في **الباب الأول**:عن الأموال وأهميتها وكيفية ووجوب حفظها مستشهداً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ووقائع التاريخ الإسلامي حتى عصره، **أما الباب الثاني**:فقد ذكر فيه المؤلف الولاية، والشروط الواجب توافرها فيمن يصلح لها، **وجاء الباب الثالث**:للحديث عن ترتيب الدواوين المصرية، ورغبة الملك الكامل محمد في اصلاحها، **بينما جاء الباب الرابع**: في ذكر تقصير واهمال بعض نظار الدواوين، وأثبت في هذا الباب أنه لو لم يحدث هذا الاهمال لتم توفير كثير من الأموال للدوله والتي تهدر بقصد أو بغير قصد، **أما الباب الخامس**

---

(١) النابلسي: لمع القوانين المضية، ص ٣٧.

والأخير: فقد تحدث فيه المؤلف عن خيانة بعض الموظفين في الدواوين، وذلك إما بالسرقة من مخازن الغلال والسُّكَّر وغيرها، وإما بالنقص في الموازين الناتج عن غش بعض المستخدمين[١]، ولهذا فإن رؤية النابلسي لاصلاح الدواوين كانت تكمن في تطبيق المعايير والشروط على المستخدمين في الدواوين، كما أنه اقترح اعادة "ديوان التحقيق" لتطبيق الرقابة الصارمة على كافة الدواوين بعد ما أمر صلاح الدين بإلغائه واكتفى "بديوان النظر"، هذا بالإضافة إلى أنه – النابلسي– اقترح تقسيم مصر إلى قسمين كبيرين أحدهما:الوجه القبلي، وثانيهما:الوجه البحري، ويكون على رأس كل قسم من هذين القسمين "حاكم اقليمي"، يتولى القيام بأعماله الإدارية، وفي بداية كل عام هجري يقوم بجولة تفتيشية في أنحاء اقليمه للنظر في الأموال وأحوال الموظفين[٢]، "فيبدّل الخائن بالأمين والعاجز بالناهض[٣]..." ولقد أعجب الملك الكامل محمد بهذه الاصلاحات ووافق عليها وأمر بإقرارها في عموم الديار المصرية[٤].

---

(١) النابلسي: نفسه ص ٩ ، ص ١٦، ص ٣٦ ، ص ٤٥، ص ٦١.

(٢) النابلسي: لمع القوانين، ص ٣٨.

(٣) النابلسي: نفسه ص ٣٨.

(٤) النابلسي: نفسه ص ٣٨.

(المبحث الثاني)

الدور السياسي لكُتّاب الدواوين في العصر الأيوبي

(٥٦٧هـ / ١١٧١ م – ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م)

تميَّز العصر الأيوبي بمشاركة كثير من فئات المجتمع المختلفة في الحياة السياسية، وذلك نظراً لطبيعة تلك المرحلة في حياة المسلمين، فقد سرت روح الجهاد والوحدة الإسلامية التي حمل رايتها السلطان صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين، لذلك شارك في الحياة السياسية كثير من فئات المجتمع المتعددة من فقهاء وعلماء[١]

---

(١) كان من هؤلاء الفقهاء والعلماء:

أ. القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري (توفى سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م)، قاضي دمشق في أيام نور الدين محمود (٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م – ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م)، وكان إليه مع القضاء أمر المساجد والمدارس والأوقاف والحسبة، ومع هذا كان من ألقابه "صاحب القلم والسيف" لدوره في الحياة السياسية، ففي سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م مكّن صلاح الدين من دخول دمشق تحقيقاً للوحدة التي كان يسعى إليها دون إراقة دماء، وتقديراً لدوره زاره صلاح الدين في داره تكريماً له. (أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المتوفي سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م: الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل – بيروت – ، ج ١ ص ٢٦٢؛ ابن تغري بردي جمال الدين يوسف الأتابكي المتوفي سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م : النجوم الزاهرة في ملوك =

مصر والقاهرة، طبعة وزارة الثقافة – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة سنة ٢٠٠٨ م ، ج ٦ ص ٧٣، ص ٧٩).

ب. شمس الدين محمد بن محمد المعروف بابن الفراش (توفى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م)، كان من أهل الفضل والعلم والرياسة والنبل، عوّل عليه السلطان صلاح الدين في الأمور العظام، فقد خصّه بالرسالة وأخذ المواثيق والعهود وولاه الولايات. (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م : الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم/ محمد محمود صبيح، قدم له د. حامد زيان غانم، الهيئة العامة لقصور الثقافة – سلسلة الذخائر ٩٠ – سنة ٢٠٠٣ م، ص ٦٢٥ ؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢ ص ٢٠٩).

ج. أبو محمد عبد الله بن علي بن الحسين المعروف بابن شكر (توفى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م)، سمع الحديث وساد، وحدّث بالقاهرة ودمشق، ومع هذا كان وزيراً مهيباً، يبالغ في اقامة النواميس مع التواضع للعلماء، ولي الوزارة بالقاهرة للملك العادل في سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م ودام فيها حتى سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م، ثم تقلدها ثانية للملك الكامل محمد سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م ودام فيها حتى وفاته ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م. (أبو شامة : الذيل على الروضتين، عني بنشره / السيد عزت العطار، دار الجيل – بيروت – ص ١٤٧؛ المقريزي : المقفى الكبير، تحقيق/ محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي – بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ج ٤ ص ٥٩٥).

د. ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري (توفى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م)، نبغ في علوم عدة، ومؤلفاته في الحديث واللغة والأدب تشهد على ذلك، ورغم ذلك شارك في الحياة =

وشعراء[١]وكُتّاب دواوين وغيرهم، لذلك فإن البحث – بمشيئة الله تعالى – سيقتصر على فئة واحدة فقط وهم "كتاب الدواوين وأثرهم في الحياة

السياسية وتقلّد وزارة دمشق للملك الأفضل علي بن صلاح الدين في سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م، لكنه لم يكن موفقاً في سياسته، وتسبب في مفارقة الأمراء والعلماء دمشق، بل زوال مُلك سيده، فنظراً لسوء افعاله حاصر الملك العادل والملك العزيز عثمان دمشق وتم الاستيلاء عليها في شعبان سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م، وأُخرج الأفضل على إلى "صَرخَد" ، أما وزيره ابن الأثيرفقد تنقل في البلاد حتى توفى ببغداد سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م. (شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م، ج ٥ ص ٢٥؛ النويري شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م": نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب– القاهرة– سنة ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م، ج ٢٨ ص ص ٤٤٨– ٤٤٩؛ الذهبي "شمس الدين محمد بن عثمان المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م": سير أعلام النبلاء ، تحقيق د/ بشار عواد معروف، د. محيى هلال السرجاني، مؤسسة الرسالة –بيروت – الطبعة السابعة سنة ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م، ج ٢٣ ص ٧٢).

(١)وكان من هؤلاء الشعراء:

أ. الحسين بن عبد الله بن رواحة أبو علي الأنصاري، الأديب، الشاعر، جده الأعلى عبد الله بن رواحة صاحب رسول الله ﷺ ، شارك في فك الحصار عن أهل عكافي سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م، فقتل شهيداً في هذه المعركة بالقرب من خيمة صلاح الدين حينما اندفع جماعة من الصليبيين إلى الخيمة =

السياسية في العصر الأيوبي"، ونظراً لكثرة الكُتّاب ومعاصرة بعضهم بعضاً، فسيكون منهج البحث في مشاركتهم في الحياة السياسية حسب سنى الوفاة الأقدم فالأحدث.

يريدون الفتك بالسلطان. (الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣١٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢ ص ٣٨).

ب. جمال الدين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح، الإمام الكبير صاحب النظم الفائق والشعر الرائق، وله ديوان شعر جيد، و إلى جانب هذا شارك في الحياة السياسية، فقد أسند إليه الملك الصالح نجم الدين أيوب وظيفة "نظر الخزانة" بمصر وهي مستودع أموال المملكة، وفي سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م أسند إليه وزارة دمشق، فقام ابن مطروح بعمله خير قيام، مما جعل السلطان يخلع عليه إمرة سبعين فارساً ولبس ابن مطروح لبس الجند، كما قام ابن مطروح في سفارة بين الصالح نجم الدين وبين الأمير عزالدين أيبك المعظمي صاحب "صَرخد"، وقد نجح ابن مطروح في سفارته و تسلّم "صرخد" دون إراقة دماء أو تسيير للجيوش، وظل ابن مطروح صاحب مكانة رفيعة في الدولة حتى وفاته سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥ ص ٣٠٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٥ ص ٣٧٣؛ ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م" : البداية والنهاية، تحقيق د/ أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث – القاهرة – الطبعة الخامسة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م، ج ١٣ ص ٢٠٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣١).

• أبوسعيد مهذب[١]بن أبي مليح مَمّاتي المتوفى سنة ٥٧٧هـ / ١١٨٢ م:

كان اختيار المهذب بن أبي مليح لرئاسة "ديوان الجيش" أول وزارة صلاح الدين للخليفة العاضد يبرهن على قيامه بدور سياسي يخدم توجه صلاح الدين آنذاك، فقد عمد صلاح الدين إلى تقويض أركان الدولة الفاطمية، يعاونه في ذلك ساعده الأيمن القاضي الفاضل عبد الرحيم[٢]البيساني، فقد لاحظ صلاح الدين تدهور الجيش الفاطمي منذ

---

(١) أبو سعيد مهذب بن أبي مليح ممّاتي، أصله من نصارى أسيوط بصعيد مصر، اتصل والده – أبو مليح – بأمير الجيوش بدر الجمالي وزير مصر في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ هـ / ١١٣٥ م – ٤٨٧ هـ / ١١٩٤ م)، فعينه بديوان الجيش "مستوفى"، فلما توفي خلفه ابنه المهذب في ديوان الجيش آخر أيام الدولة الفاطمية، ثم أسلم المهذب وأسرته على يد أسد الدين شيركوه في سنه ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م واتبع المذهب السني، فحظي عنده وعند خلفه صلاح الدين حتى وفاته في رمضان سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨٢ م، ولقب "ممّاتي" وهو لقب أبي مليح والد المهذب، وسببه أنه وقع بمصر غلاء، فكان أبو مليح كثير الصدقة والإطعام وخصوصاً لأطفال المسلمين، فكانوا إذا رأوه نادى كل واحد منهم "مَمّاتي" أي نصيبي من الطعام، فاشتهر بهذا اللقب . (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١ ص ص ٢١٠ – ٢١٣ ؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢ ص ص ١٨٤ – ١٨٥).

(٢) هو القاضي الفاضل محيى الدين عبد الرحيم بن علي بن الحسن البيساني الأصل، العسقلاني المولد، المصري الدار والوفاة، ولد في جمادي الآخرة سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م، كان فريد عصره عقلاً ونبلاً وفصاحة وبياناً، لم يكن أحد =

قدومه إلى مصر في سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٣ م، وذلك من حيث تنظيمه وفرقه المبنية على أساس عرقي، مثل: السودان والأرمن والمصريين وغيرهم، وقد أدى هذا التباين العرقي إلى تنافس هذه القوات فيما بينها من أجل السلطة، الأمر الذي أنهك تلك القوات، وأضعف الجيش الفاطمي حتى عجز عن الدفاع عن استقلال مصر، ومن ثم عزم صلاح الدين منذ توليه الوزاره (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م) على تكوين نواة لجيش أيوبي مصري جديد يدافع عن مصر ضد الغزو الخارجي، وقد ساعده في هذه المهمة القاضي الفاضل صاحب "ديوان الإنشاء"، والذي شرع في التخلُّص من أصحاب الدواوين والكُتّاب الموالين للفاطميين واستبدالهم بآخرين، لذلك وقع اختياره على المهذب بن أبي مليح ليتولى رئاسة "ديوان الجيش"، والواقع أن دور المهذب في هذه المرحلة كان خطيراً، فلم يكن المقصود منه إدارة "ديوان الجيش" بقدر ما كان يهدف إلى تنفيذ المخطط السياسي لصلاح الدين في تكوين جيش جديد يضمن ولاءه واخلاصه، وكان المهذب عند حسن الظن به، فقد ساعد صلاح الدين في امداده بالمعلومات المهمة عن كبار القواد،

يضاهيه في صناعة الإنشاء، بلغت مصنفاته في فن البلاغة نحوا من مائة مجلد، وكان مع فضله كثير العبادة، ديناً خيراً، توفي سابع عشر ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩ م. (الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق د/ صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت – الكويت – الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤ م، ج ٤ ص ٢٩٣؛ الإسنوي "جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي المتوفى سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠م" : طبقات الشافعية، تحقيق/ كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م، ج ٢ ص ص ١٣٧ – ١٣٨).

فتمكن بذلك من ابعادهم عن القصر ثم تخلص منهم نهائياً بعد ذلك، كما أن المهذب أسهم في تكوين الجيش الجديد وتنظيمه والإشراف على عساكره وذلك بمساعدة القاضي الفاضل، ولهذا توثقت العلاقة بين المهذب والقاضي الفاضل وصار محبباً إليه حتى وفاة المهذب في رمضان سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨٢ م[١].

ونظراً للدور الذي قام به المهذب بن أبي مليح في خدمة أهداف صلاح الدين، لذلك فإنه بعد وفاته أسند لإبنه الأسعد[٢]رئاسة "ديوان

---

(١) الأصفهاني: سنا البرق الشامي، تحقيق د. فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي – القاهرة – سنة ١٩٧٩ م، ص ص ٤٢ – ٤٣؛ أبوشامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج ٢ ص ١٨١، ص ١٨٤ ، ص ٢٠٩ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ص ١٦٨ – ١٧٤ ؛ د. عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دارا الفكر العربي – القاهرة – الطبعة الرابعة سنة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م، ص ٣٨١ ، ص ص ٣٨٧ – ٣٨٩.

(٢) هو القاضي الأسعد أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن أبي مليح مَمّاتي المصري، الكاتب الشاعر، ناظر الدواوين بالديار المصرية، له مصنفات عديدة تدل على علمه وفضله منها: قوانين الدواوين والفاشوش في أحكام قراقوش وسرّ الشُّعر وعلم النثر وغيرها، حظي عند القاضي الفاضل لحسن خطابه وكان يسميه "بلبل المجلس"، توفى بحلب في جمادي الأولى سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١ ص ٢١٠ – ٢١٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١ ص ٤٨٥، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢ ص ١٨٤؛ الخطط المقريزية، ج ٢ ص ١٦٠).

الجيش"، وكان الأسعد بن مماتي محظوظاً فقد ورث عن أبيه وجده "ديوان الجيش" منذ وفاة أبيه سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨٢ م وحتى أوائل سلطنة العادل أبي بكر سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م، ولم يقتصر الأسعد على "ديوان الجيش" بل أضيف إليه أيضاً "ديوان المال" والذي يعتبر من أهم الدواوين آنذاك، ولاعجب أن ابن خلكان صور مدى علو منزلة بيت "ابن مَمَّاتي" في السيطرة على مقاليد الأمور في العصر الأيوبي بقوله: "وهو كالمستولى على الديار المصرية ليس على يده يد[١]"، و ظل القاضي الأسعد بن مماتي محتفظاً بوظائفة حتى نكبه الوزير ابن[٢]شكر في أول سلطنة العادل أبي بكر الأيوبي في سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م، مما اضطره إلى الاختفاء مدة ثم الهروب إلى "حلب"، وظل هناك حتى وفاته في جمادي الأولى سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م[٣].

---

(١) وفيات الأعيان، ج ٧ ص ٣١١.

(٢) هو الصاحب صفى الدين أبو محمد عبد الله بن على بن الحسين الدميري، المعروف بابن شكر، ولد في صفر سنه ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م، وتفقه وسمع الحديث، وأجاز له أبوالحسين بن حمزة السلمي، وأبو عبد الله محمد بن علي بن صدقة وغيرهما، وحدّث بالقاهرة ودمشق، وكان وزيراً فاضلاً مهيباً، حسن الهيئة، توفي بالقاهرة في شعبان سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م. (أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٤٧؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩ ص ص ٩٢ – ٩٣؛ المقريزي: المقفي الكبير، ج ٤ ص ٥٩٥).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١ ص ٢١٢، ج ٧ ص ٣١١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١ ص ٤٨٥.

• القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني المتوفى سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م:

لم يكن القاضي الفاضل أحد كُتّاب الدواوين المرموقين فحسب، بل كان رئيساً "لديوان الإنشاء" في عصر صلاح الدين الأيوبي، وقد توثقت العلاقة بين القاضي الفاضل وصلاح الدين منذ أواخر العصر الفاطمي، فبحكم مكانة القاضي الفاضل كرئيس "لديوان الإنشاء"في العصر الفاطمي فقد كان ملماً بكثير من سياسات الدولة لصلته الدائمة بالحكام والوزراء وكبار الأمراء فضلاً عن علاقته بمختلف الدواوين، وقد أدرك القاضي الفاضل بثاقب نظره في أواخر العصر الفاطمي أن الدولة أصبحت مهلهلة من كثرة صراع الأمراء والقادة على مواقع السلطة والنفوذ في مناصب الدولة العليا، كما أدرك القاضي الفاضل أن صلاح الدين هو الأجدر بين كل المتنافسين، فهو يعمل مع سيده نور الدين محمود صاحب مشروع الوحدة بين مصر الشام للقضاء على العدو الصليبي القابع على سواحل البحر المتوسط وداخل أراضي المسلمين، لذلك اتفقت رؤية القاضي الفاضل مع هذا المشروع وعمل من أجل نجاحه[١].

وقد بدأ القاضي الفاضل أولى خطواته السياسية مع صلاح الدين بأن

---

(١)الإسنوي: طبقات الشافعية الكبرى، دار المعرفة –بيروت– الطبعة الثانية، ج ٤ ص ٢٥٣، د/ عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربي – القاهرة – الطبعة الرابعة سنة ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤، ص ٣٨٨، ص ٣٩٥.

مكنه من منصب الوزارة للخليفة العاضد الفاطميفي سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م، وقد تحدث عن هذا الدور الذي قام به القاضي الفاضل صاحب كتاب معجم الأدباء فقال: " لما مات أسد الدين شيركوه– عم صلاح الدين ووزير العاضد في جمادي الآخرة سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م – ترشح أكابر الدولة لمكانه – للوزارة – وطمع فيها من هو أهل لذلك، ولم يكن صلاح الدين ممن تطمع نفسه في تلك الرتبة، واتفق أنه اجتمع بالفاضل وجرى بينهما حديث مَن ترشح للولاية، ... فجذبه الفاضل إليه وقال له سراً : هل عندك قوة لأن تلى هذا الأمر؟، فقال صلاح الدين : وأنّي لي بذلك وهنا مثل فلان وفلان وعدّد الأكابر، فقال له: لا عليك فإني أدبّر أمرك فاستعد لذلك، فبينما هما في الحديث استدعى الفاضل إلى مجلس العاضد واستُشير فيمن يُوَلّى فقال الفاضل : رأى أمير المؤمنين أعلى وهو أعرف، فقال : ما تقول في فلان؟ فوهّى – الفاضل – أمره، وذكر شيئاً صدفه عنه، إلى أن ذكر جماعة كلهم كذلك، فقال للفاضل: فمن ترى أنت؟ قال: ما رأيت في الجماعة أحسن طريقة من يوسف بن أيوب، فإني اختبرته ورأيته يرجع إلى دين وأمانة، فقال العاضد: إني أخاف أن لايرضى به القوم، فقال الفاضل : يا أمير المؤمنين أنت ألبسه وأجلسه وهو يبذل الأموال ويصلح حال الرجال، ففعل ذلك، ... وتم أمره، وصار –أي الفاضل – صاحب القبض والبسط، وفوض صلاح الدين إليه أمور دولته، وصار لايصدر إلا عن رأيه، واستنابه في جميع أموره، ورعى له تلك الحال[١]"

وهذا النص يؤصّل للعلاقة بين القاضي الفاضل وصلاح الدين

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٤ ص ١٥٦٦.

الأيوبي، كما أنه يبين مكانة القاضي الفاضل في قصر العاضد حيث استدعاه واستشاره فيمن يوليه وزارته، ونظراً لأن الفاضل أحكم خطته فقد نجح في تقليد صلاح الدين الوزارة وحفظ له صلاح الدين هذا الصنيع طوال حياته، يقول المقريزي: "فاستخلصه وحَسُن اعتقاده فيه، ... فجعله وزيره ومشيره بحيث كان لايصدر أمراً إلا عن مشورته، ولا يُنفّذ شيئاً إلا عن رأيه، ولايحكم في قضية إلا بتدبيره[١]".

لذلك فإنه منذ أن تقلّد صلاح الدين الوزارة للعاضد الفاطمي في جمادي الآخرة سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م أخذ يعمل للقضاء على الدولة الفاطمية مستعيناً بخبرات القاضي الفاضل، يقول المقريزي : "فاستعان به – أي بالفاضل – على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية[٢]" فشرع القاضي الفاضل بحكم رئاسته لديوان الإنشاء بالتخلص من أصحاب الدواوين الموالين للفاطميين واستبدلهم بآخرين،وذلك خوفاً من أن يتآمروا مع بقايا الفاطميين أو أن يتصلوا بالصليبيين باسم الدواوين التي يعملون فيها، وفي المقابل أبقى القاضي الفاضل على الكُتَّاب والإداريين الذين ضمن ولاءهم، وكان في مقدمة هؤلاء الخطير مهذب بن أبي مليح مَمّاتي رئيس "ديوان الجيش" وأحد أصدقاء القاضي الفاضل، وقد تعاون ابن مماتي مع القاضي الفاضل في تكوين النواة الأولى لجيش موال لصلاح الدين بعيداًعن

---

(١) الخطط المقريزية، ج ٢ ص ٣٦٦.

(٢) الخطط المقريزية، ج ٢ ص ٣٦٦.

العنصرية العرقية أو التنافس على مواقع السلطة والنفوذ في الدولة[١].

لم يتوقف الدور السياسي للقاضي الفاضل حتى بعد القضاء على الدولة الفاطمية، فقد ظل متعاوناً مع صلاح الدين متيقظاً لما يحدث حوله من أمور، ففي سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م خرج صلاح الدين من مصر إلى الشام لمحاصرة "الكرك[٢]"، فانتهز الفرصة جماعة من أتباع الدولة الفاطمية يتزعمهم الشاعر عمارة اليمني[٣]من أجل القضاء على دولة

---

(١) د. على محمد الصلابي: صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، المكتبة العصرية – بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م، ص ص ٢٨٩ – ٢٩٠.

(٢) الكَرَك : مدينة قديمة كان بها قلعة حصينة جداً، وتقع الآن بالأردن على الطريق الذي يصلها بالعقبة جنوباً، وبمأدباً وعجلون وإربد شمالاً، وهي مركز محافظة الكرك، وكانت قديماً قلعة حصينة على طريق الشام من نواحي البلقاء. (ياقوت الحموي "أبو عبد الله ياقوت ابن عبد الله الرومي الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ١٢٢٨ م" : معجم البلدان، دار صادر – بيروت – سنة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م، ج ٤ ص ٤٥٣؛ د. يحيى شامي: موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي – بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣ هـ ، ص ١٤).

(٣) أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان اليمني، الشاعر الفقيه المشهور، وفد إلى مصر في عهد الخليفة الفائز الفاطمي، واتصل بالبلاط الفاطمي ومدح الخلفاء والوزراء بشعره، رغم أنه كان سنياً إلاّ أنه قام بمحاولة لإعادة الدولة الفاطمية مرة أخرى، وهذا يدل على مناصرته لهم، وهو صاحب كتاب "أخبار اليمن" وكتاب "النكت العصرية" وغيرها، أمر صلاح الدين بقتله =

صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية، وأحكم هؤلاء أمرهم وعينوا منهم خليفة ووزيراً، بل كاتبوا "عموري" ملك بيت المقدس الصليبي ليساعدهم في هذا الأمر بقطع خط الرجعة على صلاح الدين من الشام إلى مصر، لكن يقظة القاضي الفاضل وحنكته السياسية مكنته من كشف خيوط المؤامرة قبل وقوعها، فقد دسّ "زين الدين ابن نجا[١]" بين المتآمرين ليتعرف أخبارهم، وقد تظاهر "ابن نجا" بمساندتهم وأخذ يخبر القاضي الفاضل بأمرهم، فلما أيقن القاضي الفاضل بخروجهم أرسل "ابن نجا" إلى صلاح الدين ليعلمه الخبر، لذلك عاد صلاح الدين مسرعاً إلى مصر، وأحضر المتآمرين واستجوبهم فأقروا، فأمر بقتل عمارة اليمني زعيم المتآمرين وصلب البعض بينما سجن الآخرين، ولولا يقظة القاضي الفاضل ومراسلتهلصلاح الدين لكان من الممكن أن ينجح المتآمرون في القضاء

في رمضان سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م. (أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج ١ ص ٢١٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣ ص ١٠٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ ص ٢٩٦).

(١) هو الفقيه زين الدين أبو الحسن على بن ابراهيم بن نجا الدمشقي الحنبلي، الواعظ المعروف بابن نجية، نزيل مصر، ولد بدمشق سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤، سمع الحديث بدمشق من على بن أحمد بن قيس، وتفقه وسمع التفسير، وأحب الوعظ وغلب عليه واشتغل به، توفى سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م. (الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج ٢١ ص ٩٣٩، ابن عماد أبو الفلاح عبد الحيى بن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م": شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع –بيروت – ، ج ٤ ص ٣٤٠).

على دولة صلاح الدين الناشئة[١].

ولذا لم يكن القاضي الفاضل "رئيساً لديوان الإنشاء" فحسب، بل شارك بفاعلية في الحياة السياسية في عهد صلاح الدين، ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان يشارك صلاح الدين الرأي في حكم البلاد وتسيير أمور الدولة، فدائماً ما كان صلاح الدين يحرص على استشارته في سائر أموره ولا يقطع أمراً دونه، ويمكن أن نلمح ذلك من خلال أقوال المؤرخين المعاصرين له واللاحقين، يقول العماد الأصفهاني: "وكان القاضي الأجل الفاضل ذو الجلالة والفضل ... والسلطان بنجح سعيه متبرك، وبنصح رأيه متمسك، وبقوله عامل، وبعبارته قائل، ولإشارته قابل ... فإنه طالما اجتلى سني السعادة من مطالعه، واجتنى جني الإدارة من صنائعه، وافتتح الأقاليم بماتع أقلامه، وأحكم المملكة بثبوت أحكامه...[٢]"، ويقول الإسنوي: "فلما استقل صلاح الدين بملك الديار المصرية جعله كاتباً، ووزيراً، ومشيراً، ثم جاء أولاده من بعده كذلك[٣]".

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١ ص ص ٣٩٨ – ٤٠١؛ أبو شامه: الروضتين، ج ١ ص ٢١٩ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ص ٢٤٣ – ٢٥٦؛ ستانلي لين بول: تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة وتحقيق وتعليق/ أحمد سالم سالم، مراجعة وتقديم/ الدكتور أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م، ص ٣٧٨.

(٢) الفتح القسي، ص ٢١٧.

(٣)الإسنوي: طبقات الشافعية، ج ٢ ص ١٣٨.

أما ابن كثير فيذكر أن السلطان صلاح الدين كان دائم التردد على القاضي الفاضل بدمشق لأجل استشارته فيقول: " واجتمع بالقاضي الفاضل وزاره واستزاره، وفاوضه واستشاره، وكان لايقطع أمراً دونه، ولايخفي عنه مكنونه[١]" ويقول في موضع آخر "وزار –أي السلطان– القاضي الفاضل في بستانه ... وحكى له ما كان من الأمور، واستشاره فيما يفعله في المستقبل من المهمّات والغزوات، ثم خرج من دمشق في جيوشه[٢]"، بل إن المؤرخ العيني ذكر أن القاضي الفاضل كان أعز على السلطان صلاح الدين من أهله، لأنه ساعده في فتح البلدان والمعاقل فقال: "وكان كاتبه وصاحبه ووزيره ومشيره وجليسه وأنيسه، وكان أعز عليه من أهله وأولاده، ... وتساعدا على فتح الأقاليم والبلدان، والحصون والمعاقل، هذا بحسامه وسنانه، وهذا بلسانه وقلمه وبنانه[٣]" ولقد اعترف صلاح الدين بفضل القاضي الفاضل أمام رجال دولته فقال: "لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل[٤]" وهذه الأقوال وغيرها تدل على مدي مشاركة القاضي الفاضل في الحياة السياسية في عهد صلاح الدين لدرجة أن السلطان كان يزوره في بيته ليستشيره في أمور دولته تيمناً

---

(١) البداية والنهاية، ج ١٢ ص ٣٤١.

(٢) البداية والنهاية، ج ١٢ ص ٣٥٢.

(٣) العيني "بدر الدين محمود العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م": عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق د/ محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، ج ٣ ص ١١٣.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ١٥٧.

بسديد رأيه[١].

ومن الشواهد الفعلية على مشاركة القاضي الفاضل في الحياة السياسية في عهد السلطان صلاح الدين، والتي تبين مدى ثقة السلطان به، أنه كان يلازم السلطان دائماً في ساحات القتال ولم يحجبه عن ذلك إلا عذر من مرض أوحج أو تكليف بمهمة، فقد صحب السلطان في سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م عندما توجه إلى الشام لأخذ دمشق من الأمراء الذين تسلطوا على الملك الصالح[٢]بن نورالدين لصغره، وكان للقاضي الفاضل دور كبير في هذا الأمر، فقد كاتب القاضي كمال الدين الشهرزوري– قاضي دمشق – والذي اقنع الأمراء بعدم قتال صلاح الدين تجنباً لإراقة الدماء، ونتيجة لذلك فتحت دمشق أبوابها لصلاح الدين ودخلها في ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، وبعد ما استولى صلاح الدين على

---

(١) ابن كثير: البداية و النهاية، ج ١٢ ص ٣٥٢.

(٢) الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين محمود بن عماد الدين زنكي، بايعه الأمراء بدمشق عقب وفاة والده نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ، ولم يكن له أمر ولانهي إذ كان في سن الحادية عشرة من عمره، وقام بأمره الأمير شمس الدين بن المقدم، ولم تطل سلطنته فقد ضم صلاح الدين دمشق إلى مشروعه الوحدوي الكبير في سنة ٥٧٠ هـ ، وأرسل الصالح و معه حاشيته إلى "حلب"، وكان الصالح اسماعيل ديناً حليماً عفيف اليد والفرج واللسان، توفي بحلب في شهر رجب سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢ ص ٣٣٠؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٢ ص ١٦١؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٢٩ ص ٥٢).

دمشق توجه لقتال الفرنج بالساحل حتى طلبوا منه الهدنة، فوافقهم على ذلك وأرسل الجيش إلى مصر صحبة القاضي الفاضل، وذلك حتى يتزود أفراد الجيش بالمؤن من ناحية، وخشية من حدوث اضطرابات من ناحية أخرى، ويعتبر ارسال الجيش صحبة القاضي الفاضل دلالة على مكانته وعلو منزلته في الدولة الصلاحية[١].

وفي سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م طلب صلاح الدين من أخيه العادل أن يحضر من مصر إلى الشام ليولّيه "حلب" وليكون على مقربة منه في قتال الأعداء ليستأنس برأيه، وأرسل مكانه إلى مصر ابن أخيه تقي الدين عمر[٢]نائباً وفي صحبته القاضي الفاضل، فإن ثقة السلطان بالقاضي الفاضل جعلته يطمئن على إدارة ابن أخيه لمصر مدة غيابه بالشام[٣].

وفي سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م عزم صلاح الدين على حصار

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١ ص ٤١٦ ؛ أبو شامة: الروضتين ، ج ٣ ص ٢١ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢ ص ٦٨.

(٢) الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي، ولد في سنة ٥٣٤ هـ ، وكان شاباً قوياً فيه شجاعة وإقدام، عهد إليه عمه صلاح الدين بمهمات كثيرة ثقة فيه، وأخيراً أقطعه حماة وزاده بلاداً وراء الفرات، وتوفي تقي الدين في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م. (ابن العماد الأصفهاني: البرق الشامي، ج ٥ ص ١٥٥؛ أبو شامه: الروضتين ، ج ٤ ص ٢٩٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢ ص ٣٧٥).

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١ ص ص ٤٩٧ – ٤٩٩.

"الكرك"، فأرسل باستدعاء الجيوش من أنحاء الشام ومصر، فخرج الجيش المصري بصحبة تقي الدين عمر والقاضي الفاضل، وبعد ما أنجزت هذه الجيوش مهمتها عادت إلى أقاليمها، وبقى القاضي الفاضل ملازماً لصلاح الدين الذي ألمَّ به مرض شديد في سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م، وهنا استغل القاضي الفاضل فرصة إقامته مع السلطان صلاح الدين ورسم له سياسته المستقبلية، فقد أشار الفاضل على السلطان أن ينذر إن شفاه الله من مرضه ليصرفنّ همته كلّها إلى قتال الكفار، ولا يقاتل بعد ذلك مسلماً، وليجعلنّ أكبر همّه فتح بيت المقدس ولو صرف في سبيل ذلك جميع ما يملكه، "وكان هذا النذر كله بإشارة القاضي الفاضل، وهو الذي أرشده إلى ذلك وحثّه عليه حتى عقده مع الله عز وجل[١]".

وبعدما عوفى السلطان من مرضه شرع في اعداد العدة للمعركة الكبرى لاسترداد بيت المقدس، فخرج إلى الشرق وعقد صلحاً مع "أتابكة" الموصل ثم عاد إلى دمشق في ربيع الأول سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م، واجتمع بوزير دولته ومدبّر ممالكه القاضي الفاضل، "واجتمع السلطان به فبثّه أسراره، واستذال بصفو رأيه أكداره، ودخل جنته وجنى ثماره، وزاره مرة

---

(١) ابن شداد "بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م": النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق د/ جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة الثانية سنة ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤ م، ص ٢٢٣؛ أبو شامه: الروضتين، ج ٣ ص ٢٣٥ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ ص ٣٣٧.

واستزاره، وراجعه في مصالح دولته واستشاره[١]"، وكان مما أشار به القاضي الفاضل على السلطان صلاح الدين تقسيم البلاد بين أهله وولده[٢] وذلك لتحديد مسئولية حماية البلاد والثغور على أفراد البيت الأيوبي أثناء انشغال السلطان بقتال الصليبيين[٣].

ورغم أن القاضي الفاضل لم يشهد فتح بيت المقدس مع السلطان لمرض أصابه فظل بدمشق، إلا أن السلطان قدر دوره وجهده و سديد رأيه، فبعدما انتصر صلاح الدين على الصليبيين واسترد بيت المقدس، كتب كتاباً إلى القاضي الفاضل بدمشق يبشره بالفتح كما كتب إلى الخليفة الناصر لدين الله العباسي(٥٧٥-٦٢٢هـ)، وهذا أمر لم يعهد بمثله أن يكتب السلطان ببشارة الفتح إلى وزيره وكاتبه، مثل ما فعل صلاح الدين مع القاضي الفاضل،لكن ذلك لمكانة الفاضل وتقديراً لدوره مع السلطان صلاح الدين[٤].

---

(١) أبو شامه: الروضتين، ج ٣ ص ٢٥٢.

٢فأعطى مصر لولده العزيز عثمان، والشام لولده الأفضل، وحلب لولده الظاهر، وأعطى أخاه العادل إقطاعات كثيرة بمصر وجعله أتابك العزيز، وأعطى لابن أخيه تقي الدين عمر حماة والمعرّة و منيح وأضاف إليه مَيّافارقين. (أبو شامه: الروضتين ، ج ٣ ص ص ٢٥٤- ٢٥٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ١٠٣).

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ١٠٣.

(٤) أبو شامه: الروضتين ، ج ٣ ص ٣٥٣.

وفي ذي القعدة سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م، خرج جماعة من الشيعة بالقاهرة، ونادوا بشعار الفاطميين: "يا آل على"، وسلكوا الدروب ظناً منهم أن أحداً يجيبهم فيعيدوا بذلك الدولة الفاطمية، وكان هؤلاء قد اغتنموا غياب السلطان صلاح الدين بالشام ومعه الملك العادل، واستخفوا بأمر العزيز[١]عثمان بن صلاح الدين، وعلى الرغم من أن أحداً لم يجب هؤلاء، وتمكن العزيز من القبض على زعمائهم وسجنهم، إلا أن هذا الأمر قد أغضب صلاح الدين بالشام، وكان على باب خيمته جماعة من الأمراء المصريين فتبرّم منهم وهم بطردهم، وهنا برز دور القاضي الفاضل فقال للسلطان: يجب أن تشكر الله على هذه النعمة، فقد عرفت بهذا الأمر طاعة رعيتك، فقال السلطان: كان الملوك قبلي تخافهم الرعية وتهرب منهم، ورعيتنا قد تكاثروا علينا وملُّونا، فقال له الفاضل: قد أصبحت اليوم سلطان الجميع وردّ الله آمال الكل إليك، وجَمَعَ المتفرقين على بابك، فلا يجدون لهم – بعد الله – إلا جودك وكرمك، فاغرورقت عينا السلطان بالدموع، وشكر الله على احسانه، وآلى على نفسه ألا يرد قاصداً[٢]، يقول

---

(١) هو الملك العزيز عماد الدين عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد بالقاهرة سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، وكان نائباً عن أبيه في مصر مدة وجوده بالشام، ثم استقل بملك مصر بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م، وكان جواداً فيه خير احسان إلى الرعية، توفي بالقاهرة في المحرم سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢ ص ٤١٤؛ ابن تغري بردي: مورد اللطافة ، ج ٢ ص ٧).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢ ص ٢٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢ ص ٢٥٥؛ د. نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري في عهد =

ابن واصل: "فمثل هذا فليكن السلطان، ومثل القاضي الفاضل فليكن الوزير المشير[١]"، أما ابن الأثير فيتحدث عن دور القاضي الفاضل في اخماد هذه الفتنة ويشيد به فيقول: "و كان هذا القاضي الفاضل صاحب دولة صلاح الدين، وأكبر مَن بها[٢]".

أما عن الدور السياسي للقاضي الفاضل في سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠م أثناء حصار عكا فيعد الأبرز في أعماله السياسية، يقول أبو شامة: "كان القاضي الفاضل –رحمة الله– في هذه الأوقات بالديار المصرية يُرتّب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول وحمل المال، ونقل الميرة إلى عكّا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع أجوبته بأحسن عباراته، مشيراً وناصحاً ومسلياً، وباحثاً عن مصالح الإسلام متقصياً[٣]"، وهذا النص يبين أن القاضي الفاضل كان بمصر نائباً عن السلطان دون ذكر لغيره، فهو يسير أمور البلاد ويشرف على الإدارة المالية ويرسل بالأموال اللازمة إلى السلطان بالشام، وكذلك يسيّر له الجيوش وقطع الأسطول، وكان السلطان لاتنقطع كتبه إلى القاضي

صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٥٧، ص ٢١١.

(١) مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٧٧.

(٢) الكامل في التاريخ، ج ١٢ ص ٢٤.

(٣) الروضتين، ج ٤ ص ١٧٣.

الفاضل مشيراً ويرد عليه الفاضل ناصحاً وبرأي سديد[١]، وقد ذكر أبو شامة كتب القاضي الفاضل للسلطان صلاح الدين أثناء حصاره لعكا، وهي تدل على مدى أهمية رأي القاضي الفاضل عند السلطان، بل وقبول نصائحه فمنها: "المملوك ينهى أن الله تعالى لايُنال ما عنده إلا بطاعته، ولا تُفرَّج الشدائد إلا بالرجوع إليه ... ومنها: إنما أتينا من قِبل أنفسنا، ولو صدقناه لعجل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدوّنا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لانقدر عليه إلا به... [٢]" وغيرها من الكتب الدالة على نصح القاضي الفاضل ووثوق السلطان به لدرجة أن البريد كان لاينقطع ذهاباً وإياباً بين القاضي الفاضل والسلطان صلاح الدين حتى يطمئن السلطان على أمور الديار المصرية أو إرسال الإمدادات اللازمة للقتال، أو بذل النصح والحث على جهاد الأعداء، "وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه، دائم الاعتماد والاستناد على احسانه وإلى أركانه، فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المقام، وإن تركه نال وحشة التفرّد بالقضية والأحكام، فكان يكاتبه بشرح الأحوال ويستشيره... بالمكاتبات والمخاطبات، والاستشارة في المهمّات... [٣]"، وهذه الرسائل وغيرها تدل على مدى مشاركة القاضي الفاضل في الحياة السياسية واعتماد السلطان عليه في جل مهماته واستشاراته.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢ ص ص ٢٩٠ – ٢٩٤، ص ٣١٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ص ٣٦١ – ٣٦٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج ٤ ص ١٧٣ – ١٧٨.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج ٤ ص ١٧٥.

وفي ذي الحجة سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م خرج القاضي الفاضل من مصر متوجهاً إلى معسكر السلطان في عكا، فقد كان السلطان في حاجة شديدة إليه لما حدث من أخذ الفرنج لعكا، فقد استدعى السلطان كافة العساكر من أرجاء مملكته، وعلى الرغم من ثقة السلطان في القاضي الفاضل أثناء وجوده في مصر وتوليه إدارة شئونها، "وأن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبه..." إلا أنه استدعاه شوقاً إليه من ناحية، ولإدارة شئون دمشق من ناحية أخرى لأنها كانت مكان استقبال العساكر والنواب[١]، وقد ذكر أبو شامة نصاً يبين فيه أن القاضي الفاضل كان يقوم مقام السلطان في غيابه فيقول: "وودع الفاضل السلطان، وسار إلى دمشق لأنها مدرج الوافدين من الأكابر، والنواب بها ربما جبنوا عن إقامة الوظائف، وكان الأمر الفاضلي عندهم كأمر السلطان، فإذا استشاروه خلصوا من كل تبعة ودرك[٢]".

فهذا النص يوضح مكانة القاضي الفاضل عند السلطان وكذلك عند موظفي الدولة، فأمر الفاضل عندهم كأمر السلطان، وظل القاضي الفاضل بالشام يدبّر أمور السلطان، وعندما عزم صلاح الدين على الحج في سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م نهاه القاضي الفاضل خوفاً من استغلال الفرنج غيابه ومداهمة البلاد، وقد امتثل صلاح الدين لرأي القاضي الفاضل، على أن الأمر لم يدم طويلاً فقد مرض السلطان صلاح الدين مرضاً شديداً في سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م، فلازمه القاضي الفاضل في مرضه من ليل أو نهار

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ج ٤ ص ٢٣٨.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج ٤ ص ٢٨١.

حتى توفي السلطان في صفر من السنة، فتولى الفاضل بنفسه أمر غسله وتكفينه حتى تم دفن السلطان وفاءً له ومودة[١].

(١) ابن العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٢٦ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢ ص ٤٠٨، ص ص ٤١٦ – ٤١٩؛ ابن أيبك الدواداري "أبو بكر بن عبد الله بن أيبك": كنز الدرر وجامع الغرر "الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب"، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح عاشور – القاهرة– ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م، ج ٧ ص١١٣.

- **العماد الأصفهاني[١](ت ٥٩٧ هـ) ودوره السياسي في عهد صلاح الدين:**

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله القرشي الأصفهاني، ولد بأصبهان في سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م ونشأ بها، ثم قدم بغداد مع أبيه شاباً فأقام بها، وانتظم في سلك المدرسة النظامية، وتفقه على الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن الوزان، وسمع الحديث من أبي الحسن على بن هبة الله بن عبد السلام وابن جيرون والمبارك السمرقندي وغيرهم، ثم اشتغل العماد بالأدب والكتابة، فبرع فيهما وعُرف بمكانته في الأدب وصناعة الكتابة، واتصل بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة –وزير بغداد للخليفة المقتفى ثم للمستنجد وتوفى الوزير في سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م– فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط، ظل العماد محتفظاً بمكانة عالية طوال عهد ابن هبيرة، ولكن بعد وفاة الوزير ساءت أحوال العماد وتم اعتقاله مع جماعة من اتباع ابن هبيرة، لم تطل فترة اعتقال العماد فقد أمر الخليفة بإطلاق سراحه، فأقام في بغداد فترة وجيزة ثم رحل إلى دمشق في سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م، واتصل بالقاضي كمال الدين الشهرزوري قاضي دمشق ومتولى أمورها لنور الدين محمود زنكي، فأنزله بالمدرسة النورية الشافعية، وهناك تعرف بالأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وبأخيه أسد الدين شيركوه، وصار بين العماد وصلاح الدين مودة أكيدة، وأخذ يهدي إليه قصائده، وارتفع ذكر العماد في دمشق ونوّه الشهرزوري بفضله أمام نور الدين محمود فاستكتبه سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، ولم يلبث أن أسند إليه رئاسة ديوان الإنشاء في دمشق سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م، ودام فيها حتى وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م، فعمل الحاقدون على الوقيعة به، فخاف غائلتهم وخرج إلى بغداد حتى إذا بلغ "الموصل" ألم به المرض فأقعده، =

انتظم العماد الأصفهاني في سلك كُتّاب صلاح الدين منذ عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، فقد قَدَّمه القاضي الفاضل ونوّه بفضله وبلاغته ومعرفته باللغة الفارسية، وقال للسلطان : غداً تأتيك كتب الأعاجم وما يقدر على حلّها غير العماد، وربما أغيب ولا أقدر على ملازمتك، فإذا غبت قام العماد مقامي، فاستكتبه صلاح الدين(١)، وبمرور الوقت عرف السلطان فضل العماد، فقربه وصار بينهما مودة أكيدة، حتى صار العماد معاون القاضي الفاضل والرجل الثاني في الدولة بعده، ولذا يقول اليافعي عن مكانة العماد: "وترقى عنده–أي صلاح الدين– حتى صار في جملة الصدور المعدودين، والأماثل الممجدين، يضاهي الوزراء ويجري في مضمارهم... وهو صاحب السر المكتوم(٢)".

وكان العماد الأصفهاني يلازم صلاح الدين في جُلِّ أسفاره، فقد كان السلطان دائم التنقل بين مصر و الشام تارة أو في حروبه وفتوحاته تارة أخرى، وكثيراً ما كان القاضي الفاضل ينقطع في مصر ليقوم بمهام

فلما سمع بخروج صلاح الدين من مصر قاصداً دمشق لتخليص الصالح اسماعيل من سيطرة الأمراء، عاد العماد إلى الشام واتصل بصلاح الدين، وعاش من بعده في كنف الأيوبيين حتى وفاته في رمضان سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤ ص ٢٣٣؛ الإسنوي: طبقات الشافعية، ج ٢ ص ١٨٥).

(١) أبو شامة: الروضتين ، ج ٢ ص ٣٨٨ ؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١ ص ٣٤٦.

(٢) مرآة الجنان، ج ٣ ص ٤٩٢.

السلطان، بينما يلازم العماد السلطان صلاح الدين في أسفاره، ليأنس برأيه ويقوم مقام وزيره ومشيره –القاضي الفاضل – ولكثرة الملازمة نال العماد المنزلة العالية لدى السلطان، وصار يسلك معه السلطان البساطة في القول والمجلس، يقول الذهبي:"وللسلطان الملك الناصر معه من الإغضاء والتجاوز والبسط وحسن الخلق ما يتعجب من وقوع مثله[١]"، وكانت هذه عادة السلطان صلاح الدين مع من جالسه فضلاً عمن لازمه يقول العماد الأصفهاني: "وكان من جالسه لا يعلم أنه جليس السلطان، بل يعتقد أنه جليس أخ من الإخوان ... متجاوزاً عن الهفوات... ما رد سائلاً، ولا صد نائلاً، ولا أخجل قائلاً، ولا خيَّب آملاً[٢]".

وبهذه العلاقة صار العماد الأصفهاني صاحب سر صلاح الدين، ووثق به وصار من خاصته، وكان العماد يُصرّف الأمور، ويوقع على ما يوقع عليه السلطان دون مراجعة، ويقضي حاجة من يلجأ إليه من الناس، يقول العماد : "وكان أصحاب المظالم، وأرباب المطالب... يحضرون عندي، ويعرفون في انجاز أمرهم وإنجاح قصدهم بذل جهدي، فأكتب لهم توقيعات بمتوقعاتهم... فيجريها ويمضيها، ويضع علامته فيها ويرتضيها، وإذا ألفى توقيعاً بخطى علّم فيه، ولم يقف بنشره على سر مطاويه، إلفاً بما ألفه من صحبتي ومناصحتي [٣]".

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ص ٣٤٨ .

(٢) الأصفهاني: الفتح القسي ، ص ٦٥٧.

(٣) الفتح القسي، ص ص ٦٥٨ – ٦٥٩.

ولهذا كان السلطان لايثق في الكتابة للملوك وأصحاب النواحي إلا بالعماد، فكان دائماً ينتدبه للكتابة في حالتى السلم و الحرب يقول العماد:"وكان يأمرني بكتابة كتب الملوك وأصحاب الأطراف – رداً على- كتبهم في حالتي سلمهم و حربهم... فإذا قلت له: بماذا اكتب، وما الذي أخطب؟، فيقول: أنت أعرف وبحسب ما تعلم من حالنا تتصرف[١]"، وكانت هذه الثقة في العماد نظراً لقربه من السلطان، واطِّلاعه على أسراره، فهو يعرف مراده ولمن يكون ولاؤه ووداده، "فأكتب من عندي بالإجابة، وتوافق منه الإصابة[٢]"، ولعل ما جعل العماد يصل إلى ما وصل إليه من المكانة والثقة عند السلطان، أنه لم يعتبر نفسه يكتب ما يُملي عليه من أفكار، بل أعتبر نفسه مجاهداً بقلمه في ميادين السياسة، واعتز بقلمه أكثر من اعتزاز الفارس بسيفه، بل أدى به اجتهاده إلى جواز تَحليّة (الدواة) بالفضة كما يجوز للفارس تَحليّة سيفه، وقد ناظر السلطان يوماً عندما اعترض على اتخاذه "دواة" محلاة بالفضة فقال: "أو ليس تحل حلية السلاح ، واصطحابه في الكفاح، فدواء دواتي أنجع، ومداد مدادي أنفع... وسلاح قلمي أجذ وأحد وأفتك وأقتل، وما جُمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمي، ولاتفرقت جموع الكفر إلا بكلمها من جوامع كلمي... [٣]".

ولعله مما يؤكد على أهمية شخصية العماد الأصفهاني ودوره

---

(١) الفتح القسي، ص ٦٥٩.

(٢) الفتح القسي، ص ٦٥٩.

(٣) الفتح القسي، ص ٦٥٩.

السياسي في عهد صلاح الدين، أنه في سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م خرج السلطان لحصار "الموصل[١]"، فركب في جيوشه حتى وصل مدينة "حماة[٢]"، فأقام بها أياماً ينتظر وصول العماد الأصفهاني، الذي أصيب بمرض شديد جعله يقيم في "بعلبك[٣]" عدة أيام حتى برئ من مرضه ولحق

---

(١) الموصِل: تقع شمال العراق على شاطئ نهر دجلة، وهي مركز محافظة "نينوي"، وتعتبر أحد المدن العراقية المهمة في الصناعة والتجارة، ومن أشهر صناعاتها الموسلين –نوع من الثياب– وتكرير السكر، وهي أيضاً أحد أهم مراكز النفط في العراق، وسميت "بالموصل" لأنها تصل بين الجزيرة والعراق. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٢٢٣؛ آمنة أبو حجر: موسوعة المدن العربية، صص ٢٥٨ – ٢٥٩).

(٢) حماة: إحدى أكبر المدن السورية، تقع إلى الشمال من حمص، ويمر بها نهر العاصي، لذلك تكثر فيها الزراعة مثل زراعة اللوز والجوز والتفاح والرمان والقطن وغيرها، وهي مدينة قديمة كان يحيط بها سور محكم وفي طرفها قلعة حصينة، وقد اهتم بها الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، ومن أشهر معالم حماة مساجدها الأثرية مثل: الجامع الكبير، وجامع أبي الفداء، وقلعة شيزر. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٠٠ – ٣٠١؛ د. يحيى شامي: موسوعة المدن العربية، ص ٥٤– ٥٥).

(٣) بعلبك: مدينة لبنانية تقع في سهل البقاع، ويحيط بها من الشرق والغرب سلسلة جبال لبنان، تبعد عن العاصمة بيروت حوالي ٩٠ كم، وتشتهر بالتجارة والزراعة، بالإضافة إلى الصناعة لاسيما الحلويات والنسيج، وتعتبر قلعتها أشهر معالمها الأثرية، دخلها الإسلام في عهد عمر بن الخطاب على يد أبي =

بالسلطان، فلا عجب إذاً أن ينتظر السلطان وصول كاتبه ومشيره، وفي هذا اعتراف من السلطان بفضل العماد وأهمية دوره[١]، ولقد جاءت أهمية دور العماد من ملازمته الدائمة للسلطان وسديد رأيه، وقد تبيّن هذا بوضوح في كثير من كتابات العماد التي تؤكد تواجده في معسكر السلطان في جُلّ فتوحاته، فهو يذكر كثيراً عبارات تدل على وجوده وملازمته لتحركات السلطان مثل : "توجهنا... ونزلنا... وكان عندنا رسل الأطراف... ولما رأينا أمر الكرك يطول... وأن العسكر قد تعب... عدنا إلى دمشق[٢]" وكقوله في اجتماع الجيوش لقتال الصليبيين في سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٧ م "هذا والعساكر في كل يوم يفدون ... وما رأيت عسكراً أبرك منه ولا أكبر...[٣]"، إلى غير ذلك من كتابات العماد عن الفتوحات بضمير الحاضر المشاهد المعاين للأحداث، ولعل هذا ما أعطى كتابات العماد الأهمية الكبرى عن العصر الأيوبي.

وأيضاً مما يدل على أهمية دور العماد أنه في سنة ٥٨٢ هـ/

عبيدة بن الجراح رضي الله عنه. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٥٤١؛ د. يحيى شامي: موسوعة المدن العربية، ص ١١٨).

(١) أبو شامة: الروضتين، ج ٣ ص ص ٢٢٣- ٢٢٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ ص ٣٦٨.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، تحقيق د. فالح حسين، مؤسسة عبد الحميد شومان –عمان – الأردن، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧ م، ج ٥ ص ٩٨، ١٠٨، ١١٠، ١٦٢.

(٣) الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٤٣.

١١٨٢ م، مرض العماد قبل فتح بيت المقدس، فترك معسكر السلطان وعاد إلى دمشق يتداوى، فلما فتح صلاح الدين بيت المقدس أراد أن يكتب البشارة إلى الخليفة والنواحي، فجمع كُتّاب دواوينه ثاني يوم الفتح وأمرهم بكتابة الكتب، يقول العماد: "إلى أن وصل الخبر بأن السلطان نزل على القدس، فوجدت خفة في النفس... فتوجهت إلى تلك الجهة... ووصلت بكرة السبت ثاني يوم الفتح... فوصلني السلطان عند وصولي بأجلى بشاشة... وقال: أصبت في المجئ فما أخطأت، وقد كنا في انتظارك، والسؤال عن أخبارك، وهذا أوان احسانك... وكان قد جمع أمس كُتّاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاه...[١]"، وفي هذا النص إشارة إلى أهمية العماد وأن السلطان كان يسأل عنه وينتظر قدومه، ويكفى أنه جمع كُتَّاب دواوينه لإنشاء كتب ببشارة الفتح فلم يتمكنوا من أن يقوموا مقام العماد، لهذا أخذ العماد الكتب وقرأها ونقضها وكتبها بطريقته بأمر من السلطان "غيرها ولاتسيرها[٢]".

ولاعجب أن شخصية العماد قد سمت به إلى مجلس حرب صلاح الدين لاكاتباً بل مشاوراً ، "وكنت لملازمتي إياه يقدمني إماماً في الصلوات ومستشاراً في المشورات[٣]"، ففي سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م عندما عزم الصليبيون على أخذ القدس، عقد صلاح الدين مجلس مشورته لينظر في

---

(١) الأصفهاني: الفتح القسي، ص ١٣٢.

(٢) الأصفهاني: الفتح القسي، ص ١٣٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ ص ٣٧١.

هذا الأمر، "وأحضر السلطان أمراءه... واستشارهم فيما قد دهمه من هذا الأمر... فأفاضوا في ذلك... وأشار العماد الكاتب بأن يتحالفوا على الموت عند الصخرة كما كان الصحابة يفعلون، فأجابوا إلى ذلك... [١]"، وقد ظل العماد صاحب رأي صائب وكلمة نافذة حتى وفاة السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م، فقد أفل نجمه، وأبعده أصحاب السلطة عن دائرة الرأي والمشورة، فاعتزل الناس وعكف على كتابة مصنفاته حتى توفي سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م[٢].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ ص ٣٧١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ١٧١؛ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٩ ص ١٨.

• جمال الدين القفطي[1] (ت ٦٤٦ هـ) الكاتب "وزير حلب":

لم يكن جمال الدين القفطي بعيداً عن العمل الديواني منذ نشأته، إذ كان والده يعمل كاتباً في دواوين الأيوبيين، لذا نشأ جمال الدين على تعلُّم الكتابة فنبغ فيها، وصار من أبرز الكتاب في عصره نظماً ونثراً، لذا لم يجد

---

(١) القاضي جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف بن ابراهيم القفطي، المعروف بالقاضي الأكرم، أحد الكتاب المبرزين، وزير حلب، ولد بقفط من الصعيد الأعلى بالديار المصرية في سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م، ثم انتقل مع والده إلى القاهرة حيث كان يعمل –والده– كاتباً، وقد برع جمال الدين القفطي في علوم كثيرة، فألم بعلوم اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح و التعديل، وفي سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٤ م سافر مع والده إلى القدس، حيث كان أبوه والياً عليها من قبل الملك العزيز عثمان – صاحب مصر – فلما وقعت المنازعات بين ملوك الأيوبيين في مصر والشام، رحل إلى "حلب" حيث كانت بعيدة عن جو المنازعات فازدهرت فيها العلوم ورحل إليها العلماء، وفي "حلب" وجد القفطي البيئة المناسبة فألف مصنفاته العلمية وأشهرها: أخبار الحكماء، وإنباه الرواة، والدّر الثمين وغيرها، توفي بحلب في سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م. (الكتبي "محمد بن شاكر المتوفي سنة ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢م" : فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق د/ إحسان عباس، دار الثقافة –بيروت– ج ٣ ص ١١٨؛ الأدفوي: "كمال الدين جعفر بين ثعلب المتوفي سنة ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م": الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق/ سعيد محمد حسن، مراجعة د. طه الحاجري، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة، سنة ١٩٦٦ م، ص ٤٣٦).

الأمير ميمون[١]القصري أفضل منه فقلده الوزارة في سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م، ونظراً لأن القفطي كان منكباً على مطالعة الكتب والتصنيف قبلها على كره منه :"ألزمه ميمون القصري... ففعل ذلك على مضض واستحياء، ودبَّر أموره أحسن تدبير، وساس جنده أحسن سياسة[٢]"، وكانت هذه أول وزارة للقفطي، وقد أثبت أنه جدير بأمور السياسة، فقد أحسن التدبير، وزاد في اقطاعات الجند، ولم يسمع عنه شكوى طوال وزارته، وظل الأمير ميمون القصري يعظّم شأنه، ويتبرّك بآرائه حتى وفاته سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٢ م[٣].

وبعد وفاة الأمير ميمون القصري عاد القاضي جمال الدين إلى المطالعة والتأليف، لكن الملك الظاهر غازي[٤]– صاحب حلب ٥٨٩ –

---

(١) هو الأمير فارس الدين ميمون القصري الصلاحي، وهو آخر مَن بقى من أمراء صلاح الدين، وصار أحد أمراء الظاهر غازي –صاحب حلب–، كما صار من بعده أحد أمراء ابنه الملك العزيز محمد، واقطعه "نابلس" ، وينسب أصلاً إلى قصور الخلفاء الفاطميين في مصر، توفي بحلب سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م. (ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٢ ص ١٨٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ١٣ ص ٢٥٣).

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٥ ص ٢٠٢٩.

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٥ ص ص ٢٠٢٩ – ٢٠٣٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ١١٨ ، ١٣٧.

(٤) هو الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب، ولد بالقاهرة في رمضان سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م، أعطاه والده مملكة "حلب" في سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م، =

٦١٣ هـ/ ١١٩٢ – ١٢١٦ م- لم يلبث أن طلب القاضي جمال الدين القفطي وكلفه بالقيام بأمر ديوانه ووزارته، وكانت هذه هي الوزارة الثانية للقفطي، وقد قام بأعمال الوزارة والديوان خير قيام، وظل كذلك حتى وفاة الملك الظاهر غازي في جمادي الآخرة سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م[١].

وفي سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م تقلّد القِفطي رئاسة ديوان الملك العزيز محمد[٢]بن الظاهر غازي – صاحب حلب- ونظراً للخبره التي تمتع بها القفطي في العمل السياسي بتوليه الوزارة من قبل، فقد انعكس هذا على عمله في عهد العزيز محمد ، فعلى الرغم من اتساع إمارة "حلب" حتى إن عدد قراها في عهده بلغ نحو ثمانمائة ونيّف و عشرين قرية، إلا

وظل بها حتى وفاته في شهر جمادي الآخر سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م، دفن بقلعة حلب. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١ ص ٢٩٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣ ص ١٧٨).

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ١٢ ص ٣١٣ – ٣١٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣ ص ٨٥.

(٢) الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب، صاحب "حلب" ثم الشام، ولد بقلعة حلب في رمضان ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م، ولي الملك بعد وفاة أبيه سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م، وله من العمر أربع سنوات، وقام بتدبير دولته الأمير شهاب الدين طغريل والوزير جمال الدين القفطي، وكان الملك العزيز يميل إلى العدل والدين، توفي بحلب في ربيع الأول سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦ م. (اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤ ص ٦٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ١٤ ص ١٥٧؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١٦٧).

أنه كان على دراية واسعة بالقطر الذي يعيش فيه، وكان دائم التفقد لأحوال الرعيّة، يسمع شكواهم، ويعمل على حلّها، فيذكر ياقوت الحموي: أن القفطي خرج في يوم الجمعة خامس عشر من ذي القعدة سنة ٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م ليتفقد أحوال الناس، فاشتكى إليه رجل أنه أتهم بسرقة ملح وطولب بمبلغ يؤدية جراء ذلك، فلم يكد القاضي القفطي يسمع شكواه حتى عاد مسرعاً إلى الوزير شهاب الدين طغريل[١]وزير العزيز محمد، وقال: أيها الأمير روي عن النبي أنه قال :"ثلاثة أشياء مباحة الناس مشتركون فيها، الكلأ والماء والملح[٢]"، وقد حدث كذا، ولايليق بمثلك وأنت عامة وقتك جالس على مصلَّاك وهذه الأشياء تحدث في بلدك!، فأمره الأمير طغريل أن يكتب إلى جميع النواحي برفع الجبايات، والعمل باالكتاب و السنة النبوية، وإراقة كل خمر في المدينة ورفع ضمانها، وأوعد من يخالف ذلك عقوبتنا في الدنيا وعقوبة الخالق في الآخرة، يقول القفطي: "فخرجت وجلست في الديوان، وكتبت بيدي ولم أستعن بأحد من الكتَّاب في شيء من ذلك، وكتبت ثلاثة عشر كتاباً إلى ولاة الأطراف، ثم أنشد قائلاً:

---

(١) الأمير شهاب الدين طغريل الرومي، أتابك الملك العزيز محمد، كان رجلاً مكملاً في الفضائل، وفيه كرم أخلاق وكثرة التواضع للعلماء، وكان كثير العبادة والصدقة. (ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ٣١٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣ ص ٣٤٩).

(٢) أبو داود "سليمان بن الاشعث السجستاني المتوفي سنة ٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م" : سنن أبي داود، تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الفكر –بيروت– ج ٣ ص ٢٧٨.

ولا تكتب بكفك غير شيء ☆ يسرك في القيامة أن تراه[١]".

وبهذا يضرب القفطي مثلاً فريداً لمشاركة كُتّاب الدواوين في العمل السياسي سواء وهو في الوزارة أو رئاسة ديوان الإنشاء، لذلك لم يكد الملك العزيز محمد –صاحب حلب– يتجاوز سن حداثته ويستقل بالملك في سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م؛ حتى استدعى القاضي جمال الدين القفطي وقلّده وزارته، وألقى إليه زمام الأمور، وذلك ثقة في حسن إدارته وسديد رأيه، ولقد دام القفطي في الوزارة حتى وفاة الملك العزيز محمد في سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م، وعندما تولي بعده ابنه الناصر يوسف[٢]–وكان في السابعة من عمره– استمر القفطي في الوزارة، وتدبير أمور المملكة، قائماً بمصالح الراعي والرعية، يقول ابن العديم: "وأمر السلطان الملك الناصر في ملكه، ونهى بإشارة وزيره جمال الدين الأكرم... [٣]" ومن خلال

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٥ ص ٢٠٣٢.

(٢) الملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي الأيوبي، ولد بقلعة حلب في رمضان سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٢٩ م، وأقيم في الملك بعد وفاة أبيه ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م، وقام بتدبير دولته الأمير لؤلؤ الأميني (ت ٦٣٨ هـ/ ١٢٥٠ م)، والوزير جمال الدين القفطي، وكان ملكاً سمحاً جواداً محببا إلى الرعية، توفي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م. (الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ١٤ ص ٩٢١؛ ابن الوردي "عمر ابن مظفر بن عمر بن محمد المتوفى سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م": تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية –بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م، ج ٢ ص ٢٠٥).

(٣) زبدة الحلب، ج ١ ص ٥١٣.

المشاركة السياسية للقفطي يتبين أنه كان رجل علم بالمقام الأول، وكان يؤثر الاشتغال بالعلم على العمل السياسي، لكن كفاءته وخبراته بالأعمال الديوانية جعلته محط أنظار الساسة من الأمراء في "حلب"، ولعل هذا يفسر أقوال بعض المؤرخين[١]عن قبوله العمل السياسي على كُره منه أو استحياء، وفي بعض الأحيان كان القفطي يرفض المشاركة السياسية حباً في المطالعة والتصنيف، ولكن كان يتم إلزامه بذلك، وقد فعل هذا الملك الظاهر غازي في سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٢ م عندما ألزمه بوزارته ورئاسة ديوان الإنشاء معاً، ولعل خبرة الوزير القفطي بالعمل السياسي هي التي دفعت الملك العزيز محمد –صاحب حلب– بعد ما تجاوز سن الحداثة واستقل بالملك في سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م أن يقلّد القفطي وزارته، وفوض إليه زمام الأمور اعتماداً على حسن إدارته، ولقد استمر القفطي في وزارة الملك العزيز محمد طوال مدة إمارته (٦١٣ هـ/١٢١٦ م – ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦ م) ومن بعده وزيراً لابنه الملك الناصر يوسف (٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦ م – ٦٥٨ هـ/ ١٢٥٩ م) حتى وفاة القفطي سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م، وهذه المدة الطويلة التي قضاها القفطي في وزارة "حلب" (من سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م إلى سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) تدل على كفاءته وحسن تدبيره، فلم يسمع شكوى من الرعية خلالها، وكان مشكوراً محمود السيرة، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الشطر الثاني من وزارته كانت لملك قاصر– دون سن السابعة وهو الناصر يوسف – لتبين لنا من جهة أخرى

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٥ ص ٢٠٢٩.

ثقة الأمراء وأصحاب الحل والعقد في "حلب" تجاه القاضي القفطي، لذلك أشركوه معهم في سياسة البلاد[١].

(١) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٥ ص ٣١٣ ؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٧ ص ٣٥١؛ ابن العماد الحنبلي "أبو الفلاح عبد الحيى بن أحمد بن محمد العكري المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م": شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق/ محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه/ عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير – دمشق– الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م، ج ٧ ص ٤٠٨.

(المبحث الثالث)

"دور كُتّاب الدواوين في السِّفارة في العصر الأيوبي"

لعب كُتّاب الدواوين دوراً مهماً في السّفارة في العصر الأيوبي، سواء أكان ذلك بين ملوك الأيوبيين بعضهم البعض، أو بين ملوك بني أيوب والخلافة العباسية في بغداد، أو مع الممالك الخارجية المجاورة، ويأتي في مقدمة هؤلاء السفراء من الكُتّاب القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م)، فقد كان في عهد صلاح الدين وزيره ومشيره وكاتبه، وصاحب المكانة الأولى في دولته[١]. فلم يكن دور القاضي الفاضل ليخبو بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م، فقد ظل مسموع الكلمة من ولاة الأمر بعد صلاح الدين، وآية ذلك سفاراته في الصلح بين الملك الأفضل على[٢] بن صلاح الدين –صاحب دمشق– وأخيه العزيز عثمان –صاحب مصر–، فبعد ما استقل الأفضل علي بملك دمشق عقب وفاة صلاح الدين قلّد وزارته لضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م)، وصار يعتمد عليه في جميع أحواله، وردّ أمور

---

(١)الإسنوي: طبقات الشافعية، ج ٢ ص ١٣٨.

(٢) أبو الحسن على بن يوسف بن أيوب الملك الأفضل، ولد بالقاهرة سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م، وهو أكبر أولاد صلاح الدين، لم يكن موفقاً في ملكه، فقد سلب منه مراراً، توفي بقلعة سميساط في صفر سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠ ص ٣٩٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣ ص ص ٩٥ – ٩٧).

الناس إليه، وأدناه وأقصى من سواه، رغم أنه لم يكن أهلاً لمنصب الوزارة، مما تسبب في نزوح كثير من أمراء الشام إلى مصر وكذلك بعض العلماء وغيرهم[١]، وكان في مقدمة من رحلوا إلى مصر القاضي الفاضل، وهنا ظهرت مكانة القاضي الفاضل من خلال الحوار الذي دار بين الملك الأفضل وكاتبه العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م)، فقد أدرك العماد الأصفهاني خطورة مفارقة القاضي الفاضل دمشق إلى مصر وقال للملك الأفضل :"لِمَ تركت القاضي الفاضل يرحل، والمُلك بتحوله يتحول؟، فقال: ما الذي كنت أفعله وهو لايقبل مني؟،فقلت له: كان ينبغي أن تركب إلى داره، وتفعل كل ما يؤثره، فكنت تملك به أمرك، وتأمن به في ملكك، فقال الأفضل: نحن أعلم بالصواب[٢]"

و من خلال النص السابق يتبين مكانة القاضي الفاضل في الدولة، فالملك الأفضل لايستطيع أن يمنعه من الخروج إلى مصر، كما أن وجود الفاضل في دمشق يثبّت ملكها في يد الأفضل، وبذهاب القاضي الفاضل يتحول المُلك بتحوله، وقد اثبتت الأحداث أن الملك العزيز عثمان –صاحب مصر– كان أكثر حنكة من أخيه الأفضل، فعندما سمع بقدوم القاضي الفاضل إلى مصر، خرج واستقبله بنفسه، وأعظمه غاية الاعظام، وأحلّه محل الوالد، وصار لايصدر أمراً إلا بمشورته، كما أكرم الأمراء الذين فارقوا

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ج ٤ ص ٤٢٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥ ص ٢٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ١١٢؛ابن ايبك: كنز الدرر، ج ٧ ص ١٢٤.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ١١-١٢.

أخاه لأفضل وأنزلهم المنزلة اللائقة بهم، فنقلوا إليه سوء أحوال الشام، وظلم الوزير ضياء الدين بن الأثير، وأشاروا عليه بأخذ دمشق من أخيه الأفضل لرفع الظلم عن الرعيّة(١)، وبالفعل تحرّك العزيز عثمان بجيوشه من مصر قاصداً دمشق أوائل سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٢ م، فاستنجد الأفضل علي بعمه العادل – صاحب الكرك– وأخيه الظاهر غازي –صاحب حلب– فحضرا إلى دمشق وقصدوا جميعاً مقابلة الملك العزيز، فلم يكد يسمع بهم العزيز حتى عاد إلى مصر وهم خلفه ،"فلم يظن أحد إلا أن الأمر قد تم– للملك العادل–، وأن الملك العزيز قد تلاشى أمره بالكلية(٢)" ، وهنا برز دور القاضي الفاضل، فقد طلب منه الملك العزيز أن يقف إلى جواره في محنته قائلاً: "قد علمت أن الأمور قد ضاقت عليّ، وقلّت عندي الأموال، وليس لي إلا حسن نظرك واصلاح الأمر لنا بمالك أو برأيك أو بنفسك، فقال له الفاضل: جميع ما أنا فيه من نعمتكم، ونحن نقدّم أولاً الرأي و الحيلة، ومتى احتيج إلى المال فهو بين يديك(٣)".

وفي ذات الوقت الذي طلب فيه الملك العزيز من القاضي الفاضل مساعدته في محنته، جاءت رسل الملك العادل باستدعاء القاضي الفاضل

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥ ص ٢٦، النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨ ص ٤٤٦؛ شفان ظاهر عبد الله الدوسكي: الملك الأفضل على بن صلاح الدين الأيوبي، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع –دمشق– الطبعة الأولى سنة ٢٠١٢ م، ص ص ١٠٧ – ١١٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ٥٧.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ص ٨٣ – ٨٤.

لتقرير قواعد الصلح بين الأخوين وتمكن القاضي الفاضل من الاجتماع بالملك العادل والملك الأفضل وقرر معهما قواعد الصلح على أن يستقر كل في مملكته، الأفضل بدمشق، والعزيز بمصر بفضل سفارة القاضي الفاضل[١].

وظل القاضي الفاضل يؤدي دوره بالمشاركة في الحياة السياسية حتى قبيل وفاته، ففي المحرم سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٧ م، توفي الملك العزيز عثمان –صاحب مصر– فخلفه في الملك ولده المنصور محمد[٢](٥٩٥هـ / ١١٩٨ م – ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م)، ووقع الاختلاف بين الأمراء فيمن

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢ ص ١١٠؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ص ٨٧ –٨٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣ ص ص ١٠ –١١؛ د/ يوسف حسن غوانمة: معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، دار الفكر –عمان– الأردن، الطبعة الأولى سنة ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م، ص ٦١.

(٢) الملك المنصور محمد بن عثمان بن يوسف بن أيوب، سلطان الديار المصرية، ملك بعد وفاة أبيه وعمره نحو عشر سنوات، في المحرم سنة ٥٩٥ هـ، ولم تطل أيامه لصغر سنّه ولتغلب أعمامه عليه، وآخر الأمر خلعه عم أبيه الملك العادل وتسلطن مكانه في سنة ٥٩٦ هـ، فكانت مدة سلطنته على مصر سنة واحدة وتسعة أشهر، وظل الملك المنصور بالقاهرة حتى وفاته... ولم تشر المصادر التي اطلعت عليه إلى سنة وفاته. (ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ٨٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٢ ص ١٩٠؛ ابن تغردي بردي: مورد اللطافة، ج ٢ ص ٩).

يكون "أتابكه[١]"، يقول ابن واصل: "وطال النزاع بينهم في ذلك، ففزعوا إلى رأي القاضي الفاضل، فقال لهم: إني لاأشير عليكم بعزل أحد ولا ولاية أحد،... ولكن اجتمعوا بعضكم ببعض وامخضوا بينكم الرأي، فإذا رضيتم أمراً فاعرضوه عليّ، ففعلوا ما أشاربه، وتحاوروا بينهم الآراء ثلاثة أيام، فاتفقت كلمتهم على مكاتبة الملك الأفضل... وأن يكون أتابكاً للملك المنصور... ولما اتفقوا على ذلك عرضوه على القاضي الفاضل، فقال: قد أصبتم الرأي، واخترتم الذي اختاره السلطان الناصر –رحمه الله– لكم، وهو ألين عريكة، وأسهل تناولاً من غيره[٢]"، وهكذا كان القاضي الفاضل محط أنظار كبار الأمراء في مصر، ومحل تقدير لسديد رأيه، فلم يدل برأيه أولاً لعلمه أن ذلك قد يستجلب عداوة بعض الأمراء، وإنما أيد ما اتفق عليه الأمراء رفعاً للخلاف، وأعلن أن ذلك يوافق رأيه الشخصي، وبذلك تم استدعاء الملك الأفضل على من الشام في ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ/

---

(١)أتابك: لفظ تركي مركب من "أتا" بمعنى الأب أو المربي و"بك" بمعنى الأمير، ويرجع استخدامه إلى نهاية العصر العباسي، حيث كان لقباً لمربي أبناء ملوك السلاجقة، وأول من أطلق عليه هذا اللقب "نظام الملك" وزير ملكشاه بن ألب أرسلان سنة ٤٦٥ هـ واستخدم بعد ذلك في الدولة الأيوبية وبعدها. (حسان حلاق وآخر: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين –بيروت–الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩ م، ص١٤؛ مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة –بيروت–الطبعة الأولى سنة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م، ص ١٧).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ٩٠.

١١٩٨ م وتسلّم مهامه، وزال الخلاف بين الأمراء، مما يدل على مكانة القاضي الفاضل ومشاركته في الحياة السياسية حتى وفاته في ربيع الآخر ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م[١].

وفي سنة ٥٩٠ هـ/ ١١٩٣ م لعب العماد الأصفهاني الكاتب (ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م) دوراً مهماً في السِّفارة بين الملك الأفضل على – صاحب دمشق– والملك العزيز عثمان –صاحب مصر– عندما تجدد بينهما النزاع مرة أخرى، هذا على الرغم من اعراض الملك الأفضل عن العماد الأصفهاني منذ وفاة صلاح الدين في صفر سنة ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م، وذلك بسبب اصغاء الملك الأفضل إلى وزيره ابن الأثير، يقول العماد: "ومكث الملك الأفضل أشهراً للغنى عنى مظهراً[٢]"، لكن اعراض الأفضل عن العماد الكاتب لم يدم كثيراً، فسرعان ما عرف الأفضل فضل العماد، فأرسل إليه ولم يزل يخاطبه بلطف، ويرغِّبه ويبجله حتى انتظم في سلك كُتّابه، وفي مقدمة نصحائه، لولاحيلولة بطانة الأفضل دون ذلك، فالعماد صاحب مكانة عند البيت الأيوبي منذ خدمته لصلاح الدين، لذلك قال للأفضل على: "دعني أكتب إلى أخيك واستعطفه... وأنا أعلم أنه لايرد قلمي بالسيف[٣]"، لكن الأفضل لم يصغ إلى العماد وذلك لقول نصحائه إنه

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١ ص ٣٤٠؛ الإسنوي: طبقات الشافعية، ج ٢ ص ١٣٨.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ١٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ٢٨.

يوالي العزيز صاحب مصر، وإذا كان الأفضل قد قبل مرغماً عدم تدخل العماد رغم علمه بفضله في وقت ما، غير أنه في وقت الجد عندما حاصرت جيوش العزيز دمشق، وضيقوا على أهلها، لم يجد الأفضل غير العماد الكاتب ليكون رسوله إلى أخيه العزيز، يقول العماد: "وندبني الملك الأفضل فيمن ندبه من الأماثل والأعيان لنكون شاهدين عقد الحلف[١]".

لم يكن العماد الأصفهاني أحد أفراد وفد الملك الأفضل للاتفاق على الصلح، بل كان صاحب المكانة الأولى من بين المبعوثين، فعندما وصل هذا الوفد إلى الملك العزيز "بالمِزَّة[٢]"، اختار العماد لمشافهته وقال: "هذا كاتب البيت ويمين الدولة، وبقلمه يتسدد هذا الخلل[٣]"، وقد تحدث الملك العزيز مع العماد الكاتب في بعض بنود نسخة الصلح، فالتمس العماد التوفيق بين رغبات الملوك قدر استطاعته، فتم الصلح بين العزيز وأخيه الأفضل علي الذي استقر في دمشق، وعاد العزيز عثمان إلى مصر في

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢ ص ١١٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ٣٢.

(٢) المِزَّة: قرية كبيرة في أعلى الغوطة، وسط بساتين دمشق، وتقع في سفح الجبل، وبينها وبين دمشق نصف فرسخ –نحوثلاثة كيلو مترات تقريباً–، وبها فيما يقال قبر دحية الكلبي صاحب رسول الله ^ . (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ١٢٢؛ ابن عبد الحق "عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي المتوفي سنة ٧٣٩ هـ" : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل –بيروت– الطبعة الأولى سنة ١٤١٢ هـ، ج ٣ ص ١٢٦٦).

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ٣٣.

شعبان سنة ٥٩٠ هـ/ ١١٩٣ م بفضل سفارة العماد الأصفهاني الكاتب[١].

• نظام الدين محمد[٢] بن الحسين الكاتب الأصفهاني (ت ٦٠٧ هـ/ ١٢١٠م):

يعتبر نظام الدين الكاتب من أكثر الكُتّاب مهارة ومشاركة بدور فعّال في الحياة السياسية في العصر الأيوبي، ويشهد على ذلك الدور الكبير الذي قام به في السّفارة بين بعض الملوك الأيوبيين، ومما يدل على مقدرة نظام الدين وحنكته السياسية أنه في سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨م أرسل الظاهر غازي –صاحب حلب–موفق الدين بن النخاس رسولاً إلى أخيه الملك الأفضل في مصر يَحُثّه على الخروج إلى دمشق وأخذها من عمه

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢ ص ١١٠–١١٢؛ أبوشامة: الروضتين، ج ٤ ص ٤٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ص ١٣ – ٣٦؛ د. قاسم عبده قاسم، د. علي السيد علي: الأيوبيون والمماليك "التاريخ السياسي والعسكري"، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٦ م، ص ص ٨٤ – ٨٦.

(٢) نظام الدين محمد بن الحسين الكاتب الأصفهاني، وزير الظاهر غازي صاحب حلب، كان وزيراً صالحاً مشفقاً ناصحاً، واسطة خير عند السلطان، لايشير عليه إلا بما فيه مصلحة رعيته والإحسان إليهم، توفي بحلب في شهر صفر سنة ٦٠٧ هـ/ ١٢١٠ م. (ابن العديم: زبدة الحلب، ج ١ ص ٥٤١؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ١٩٦).

العادل –وقد كان الأخير مشغولاً بحصار ماردين[١]–، فلما مرّ ابن النخاس في طريقه "بالقدس[٢]" قبض عليه الأمراء الصلاحية[٣] وأهانوه، وردوه إلى حلب، وهنا برز دور نظام الدين الكاتب، فقد أرسله الملك الظاهر غازي

---

(١) ماردين: بكسر الراء والدال، مدينة من ديار ربيعة بعمل الموصل –العراق– وهي أشهر المدن، وقلعتها من أحصن القلاع، تقع على قمة جبل مشرف على دنيسر ونصيبين، وأرضها قليلة المياة، لذلك جُلّ شرب أهلها من صهاريج معدة في دورهم، وكان فتحها وفتح سائر الجزيرة سنة ١٩ هـ في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٣٩؛ الحميري "أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم المتوفي سنة ٩٠٠ هـ": الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة –بيروت– الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٠ م، ج ١ ص ٥١٨).

(٢) القُدس: تقع مدينة القدس شمال مدينة "بيت لحم" وهي عاصمة فلسطين، وتعدُّ من أشهر مدن العالم، فهي ملتقى الحضارات والرسالات السماوية، ترتفع عن سطح البحر حوالي ٧٥٠ متر، وتنقسم إلى قسمين: قسم داخلي مسوّر وهو القدس الشرقية، ومساحتها تبلغ حوالي الكيلومتر المربع، وقسم خارجي: غير مسوّر، وهوالمعروف بالقدس الغربية، ويبلغ طول هذا القسم قرابة ٤٢٠٠ م. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٤١٣؛ آمنه أبو حجر: موسوعة المدن العربية، ص ٣٥٧).

(٣)الصلاحية: نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي وهم صنف من الجند والأمراء ،فقد أمر صلاح الدين بتشكيلهم في عهده وكان غالبيتهم من الفرسان الأكراد وكانوا له بمثابة الحرس الخاص. (مصطفى عبدالكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص ٢٩٢).

وحمّله رسالة إلى الأمراء الصلاحية بالقدس، يعرفهم أنه إنما أرسل إلى أخيه الأفضل في اصلاح ذات البين، وأرسل معه ابن النخاس وحمّله رسالة في الباطن يستحث الأفضل على الخروج إلى دمشق وأخذها، وأنه سوف يوافيه بالجنود، ومما يدل على مكانة نظام الدين أنه تمكن من خديعة الأمراء الصلاحية، وأنفذ ابن النخاس إلى مصر، ولم يرجع نظام الدين إلا بعد ما اطمأن على توجه ابن النخاس إلى مصر فقد أوصاه الملك الظاهر غازي أن لا يفارقه حتى يخرج من القدس متوجهاً إلى مصر[١].

وعلى الرغم من نجاح نظام الدين الكاتب في مهمته، وخروج الأفضل بعساكره من مصر إلى الشام، وكذلك حضور الظاهر غازي من "حلب" بجيوشه، إلا أن العادل قد علم بذلك وسبقهما إلى دمشق وحصّنها، وعندما حاصر الأفضل والظاهر دمشق لم يتمكنا من الاستيلاء عليها، وكاتب العادل الأمراء في جيوشهما لضمهم لصفوفه، فوصلوا إليه فأكرمهم إكراماً زائداً، وأفسد العلاقة بكتبه السرية بين الأخوين فتنافرا وعاد كل إلى وجهته، ولم يكتف العادل بهذا بل تبع الأفضل إلى مصر واستولى عليها وأخرجه إلى "صَرْخَدْ"[٢].

وفي سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م كانت السفارة الثانية لنظام الدين

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ٩٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨ ص ٤٤٨ – ٤٤٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣ ص ص ١٦– ١٧؛ ستانلي لين بول: تاريخ مصر في العصور الوسطى، ص ٤١٦.

الكاتب، وذلك بعد ما صار العادل سلطان مصر والشام، فقد أرسل الظاهر غازي رسوله إلى عمه العادل كي يحلف للملك الظاهر على ما بيده من البلاد، ويقيم الخطبة والسّكة للعادل، وتقديراً لنظام الدين الكاتب ركب الملك العادل إلى لقائه، وأكرمه إكراماً تاماً، وأقرَّ للملك الظاهر بما تحت يده من البلاد، وحلف له على ذلك، وألزمه بخمسمائة فارس تكون في خدمة الملك العادل في كل سنة من خيار عسكر حلب[١].

وقد بلغ نظام الدين الكاتب منزلة كبيرة عند الملك الظاهر غازي – صاحب حلب–، ويكفي للاستدلال على هذا أنه قطع العلاقات مع عمه العادل نتيجة إساءة الأخير لاستقبال رُسُلِه، ففي ربيع الأول سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م أرسل الظاهر غازي سفارة إلى عمه العادل في مصر، فأساء العادل استقبال رسولي الظاهر غازي وهما: نظام الدين الكاتب، والأمير علم الدين قيصر الصلاحي، فقد أرسل إليهما العادل عندما وصلا إلى "بلبيس[٢]" يقول لهما: "أقيما مقامكما، ولا تدخلا مصر، وإن كانت معكما

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠ ص ص ٢٥٧ – ٢٦٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ٩٤؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج ٣ ص ٣٦٦.

(٢) بِلْبِيس: بكسر الباءين، وسكون اللام، وياء وسين مهملة، مدينة قديمة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ، فتحت في سنة ١٨ هـ على يد عمرو بن العاص، وهي اليوم قاعدة مركز بلبيس أحد مراكز محافظة الشرقية. (الهمداني "أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان المتوفي سنة ٥٨٤ هـ" : ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأماكن، تحقيق/ حمد بن محمد الجاسر، دارا اليمامة – =

رسالة فحمّلاها لقاضي بلبيس حتى ينهيها إليّ، وإن لم تفعلا فارجعا من حيث جئتما[١]".

ولم تشر المصادر –التي اطلع عليها الباحث– إلى مضمون السفارة، وعاد السفيران إلى حلب على هذه الصورة يقول ابن واصل: "وحصلت عند الملك –الظاهر غازي– نَفْرَةٌ من ردِّ رسوليه على هذه الصورة... وكاتب الصلاحية... فمال إليه جماعة منهم[٢]".

أما السِّفارة الأخيرة لنظام الدين الكاتب فكانت في سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م، وكانت الأكثر أهمية من بين سفاراته كلها، وهي تؤكد في الوقت نفسه على أهمية السفارة في ذلك الوقت، وأنه يمكن أن يصل الملوك إلى أغراضهم بالسفارة بدل أن يصلوا إليها بالسيف، ففي عام ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م حاصر الملك العادل "مدينة سِنْجَار[٣]" فأرسل إليه

البحرين– سنة ١٤١٥ هـ، ج ١ ص ٧٢٨؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٤٧٩).

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ١١٨.

(٢)ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ١١٩؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج ٣ ص ٣٧٠.

(٣) سِنْجَار: بكسر أوله، وسكون ثانيه، مدينة مشهور من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، ويقال: إن سفينة نوح عليه السلام لما مرت بها أصيبت من أسفلها، فقال نوح: هذا سن جار علينا، فسميت سنجار. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٦٣).

الظاهر غازي نظام الدين الكاتب وأخاه الملك المؤيد مسعود، وأرسل معهما هدايا كثيرة وتحفاً، وكان مضمون الرسالة الشفاعة في صاحب "سنجار"، وقال لهما: "إن لم يقبل الشفاعة فأعلماه أني خارج إلى بلاده... وأن يأمرا مَنْ عنده من عسكر حلب وكانوا خمسمائة فارس أن يفارقوه إلى الموصل أو إلى حلب(١)".

ولما وصل نظام الدين والملك المؤيد مسعود إلى العادل وأبلغاه الرسالة امتنع عن قبول الشفاعة وأغلظ لهما في القول، وهنا قام نظام الدين الكاتب ورفيقه بدور بارز في افساد الأمر على الملك العادل، فأمرا العسكر الحلبي بمفارقته ففارقوه، وأوقعا الدسائس بين أصحاب الملك العادل حتى فسد حاله، كما أنهما أرسلا في الباطن إلى بعض أهل "سنجار" يطلبون منهم ألاّ يخرجوا للقتال مع الملك العادل ومع أمرائه، وقد أدت سفارة نظام الدين ورفيقه أغراضها، فقد تقاعس الأمراء عن القتال فلم ينل العادل غرضه، واضطر أخيراً إلى رفع الحصار عن "سِنْجار" وعاد إلى "حرّان"، وقد أظهرت هذه السِّفارة جلد وثبات نظام الدين الكاتب والملك المؤيد مسعود، فعلى الرغم من أن العادل أغلظ لهما في القول، فقد نجحا في سفارتهما وتحققت أغراضهما، مما يدل على أهمية دور السفراء، و مشاركة كُتّاب الدواوين في الحياة السياسية آنذاك(٢).

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ١٩٦.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ج ١ ص ص ٤٤٨ – ٤٤٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣ ص ١٩٧.

• الصاحب كمال الدين عمر[١] بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة (ت ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م):

شارك ابن العديم في الحياة السياسية منذ فترة مبكرة من شبابه، حيث ترجع جذوره إلى أسرة عريقة لها تاريخ في العمل السياسي، وقد

---

(١) هو الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، المعروف بابن العديم، ولد في مدينة حلب سنة ٥٨٨ هـ، اعتني به والده منذ صغره لضعف بنيته الجسمية، فوجهه إلى التعليم وهو في سن السابعة من عمره، ونظراً لمكانة أسرة ابن العديم، فقد نال حظاً وافراً من العلم والمعرفة، كما وجهه والده أيضاً لاتقان الخط فبرع فيه وأجاد، تنقل ابن العديم في شبابه مع والده إلى دمشق وبيت المقدس والعراق والحجاز، وشارك في الحياة السياسية وهو في مقتبل شبابه، فقد كان يحضر مجالس الملك الظاهر غازي صاحب حلب فيكرمه ويقربه، ومع مرور الأيام صار ابن العديم من أكابر حلب المعدودين، فقد كان أديباً حسن الخط من بيت عريق، حتى وصل إلى مرتبة الوزارة وترسّل عن ملوك حلب شرقاً وغرباً، وعندما اجتاح التتار "حلب" ولحق بها الدمار في سنة ٦٥٧ هـ انتقل إلى القاهرة ثم وافته المنية بمصر سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م. (ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٥ ص ٢٠٦٨ – ٢٠٧٠؛ الصفدي "صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله المتوفي سنة ٧٦٤ هـ": الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار احياء التراث – بيروت– سنة ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م، ج ٤ ص ١٨٥؛ القرشي "عبد القادر بن محمد بن نصر الله الحنفي المتوفي سنة ٧٧٥ هـ": الجواهر المضية في طبقات الحنفية، الناشر: مير محمد كتب خانه –كراتشي– باكستان، ج ١ ص ٣٨٦).

ساعد الصاحب ابن العديم على الإنخراط في العمل السياسي اتقانه لبعض العلوم وأنواع الخطوط، فارتقي إلى مجالس ملوك حلب منذ عهد الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين (٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م – ٦١٣ هـ / ١٢١٦م)، ثم عمل في الكتابة الديوانية وارتقى إلى مرتبة الوزارة في عهد الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي (٦١٣ هـ / ١٢١٦ م – ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م)، وصار ابن العديم موضع ثقة في البيت الأيوبي فترسّل في السفارة عن ملوك "حلب" وغيرهم في عظائم الأمور[١].

ففي سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م ساءت العلاقة بين الأخوين الملك الأشرف موسى بن العادل –صاحب سنجار– وأخيه الملك المعظم عيسى – صاحب دمشق، فاستدعى الأشرف موسى ابن العديم وحمّله رسالة إلى الأمير شهاب الدين طغريل–أتابك الملك العزيز محمد صاحب حلب– وتتضمن الرسالة ما وقع بينه وبين المعظم عيسى من الخلافات، وفي نهاية الرسالة يطلب الأشرف موسى المساعدة من عسكر حلب ضد أخيه المعظم صاحب دمشق، وكذلك الملك الكامل –صاحب مصر–، لكن الأمير طغريل لم يوافق الأشرف موسى، لأنه سبق وأن حلف للكامل محمد أنه لايهادن أحداً من الملوك إلا بأمره، وأهمية هذه السفارة ترجع إلى أنه رغم علم الأشرف موسى بولاء ابن العديم لملوك حلب، إلا أن ذلك لم يمنعه من الاستعانه به عندما ضاقت عليه الأمور ثقة في ابن العديم[٢].

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٥ ص ٢٠٦٨ – ٢٠٦٩.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ص ٤٧٢.

وفي شهر صفر سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦م مرض الملك العزيز محمد –صاحب حلب– فلما اشتد به المرض استحلف الناس لولده الناصر يوسف، وأرسل الملك العزيز ابن العديم رسولاً إلى أخيه الملك الصالح أحمد[١]–صاحب عين تاب[٢]– فاستحلفه ابن العديم للملك العزيز محمد ولابنه الناصر من بعده، وقد توفي الملك العزيز محمد قبل عودة ابن العديم من سفارته في شهر ربيع الأول سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٢٦م[٣].

أما السّفارة الثالثة لكمال الدين بن العديم فكانت في ذي القعدة

---

(١) الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، صاحب عبن تاب، كانت ولادته في صفر سنة ٦٠٠ هـ بحلب، وهو أكبر من أخيه العزيز محمد، غير أنهم قدموا العزيز لأن أمه ضيفة خاتون بنت الملك العادل بن أيوب، فقدموا العزيز وهو الأصغر لأجل جده وأخواله، أما الصالح فأمه جارية، توفي الصالح أحمد في شعبان سنة ٦٥١ هـ بعين تاب. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤ ص ١٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٥ ص ١١٦).

(٢) عين تاب: قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية، تسلمها الأمير شهاب الدين طغريل الظاهري، ثم إنه سلّمها إلى الملك الصالح أحمد بن الملك الظاهر غازي، فسكنها وابتنى بها المباني الحسنة. (ابن العديم: زبدة الحلب، ص ٣٢٣؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ١٧٦).

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، ص ٤٨٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٥ ص ١١٦.

سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦ م إلى "قَيْسَارِيَّة[١]" -كرسي مُلك بني سلجوق ملوك الروم أولاد قِلِج أرسلان-، فقد توفي ملك الروم علاء الدين كيقباذ[٢]، وخلفه ابنه علاء الدين كيخسرو[٣]، وكان مضمون سفارة ابن العديم إلى

---

(١) قَيْسَارِيَّة: بالفتح ثم السكون، وسين مهملة، وبعد الألف راء ثم ياء مشددة، بلدة على ساحل الشام، وتقع ضمن أعمال فلسطين بين حيفا ويافا، وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن، واسعة الرقعة، طيبة الهواء، كثيرة الخيرات والسكان، لكنها تراجعت مكانتها في القرن الثامن الهجري حتى وصفها ياقوت بأنها بالقرى أشبه منها بالمدن، أما قيسارية المذكورة بالمتن ويقال لها أيضاً "قَيْصَرِيَّة" تمييزاً لها عن قيسارية الشام، فهي مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم، وهي حاضرة ملوك سلجوق أولاد قلج أرسلان، والنسبة إليها قيسراني على غير قياس. (ابن العديم: زبدة الحلب، ص ٤٩١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٢١؛ ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع، ج ٢ ص ١١٣٩؛ د. يحيى شامي: موسوعة المدن العربية، ص ١٠٤).

(٢) السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قِلِج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمس بن اسرائيل بن سلجوق صاحب الروم، كان ملكاً مهيباً حازماً، هزم خوارزم شاه، واستولى على عدة مدن، وتزوج بابنة الملك العادل فانجب منها ابنه كيخسرو الذي خلفه في الملك، توفي كيقباذ في شوال سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦ م. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥ ص ٨٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٦ ص ٢٩٥؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٢٤ ص ٢٨٨).

(٣) غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقي، تسلطن بعد أبيه وهو شاب، وفي عهده تدهورت مكانة مملكة الروم، واضطر =

بلاد الروم التعزية في وفاة "كيقباذ"، وتجديد العهد مع ابنه كيخسرو على القاعدة التي كانت مع أبيه[١]، يقول ابن العديم: "فحلّفته على ذلك، في ذي القعدة[٢]".

أما السّفارة الرابعة لابن العديم فكانت في سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧م، وهذه السفارة تدل على مكانة ابن العديم عند أهل الحل والعقد في حلب، فهو ليس سفيراً من قِبَل ملك حلب الناصر يوسف –فهو دون السابعة– بل أرسله الحلبيون على حد تعبير ابن واصل: "وسيّر الحلبيون الصاحب كمال الدين بن العديم رسولاً[٣]"، وكان السبب في سفارة ابن العديم هو الصلح بين الملك المظفر[٤] "صاحب حماة" والملك المجاهد[١]

إلى دفع إتاوة إلى التتار في كل يوم ألف دينار، ولما أراد مواجهة التتار هزموه وأسروا أمه، توفي سنة ٦٤٣ هـ. (الصفدي: الوافي بالوفياتج ٢١ص ٢٦١؛ ابن أيبك: الدُّر المطلوب، ص ٣٥٢).

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٥ ص ١٢٤.

(٢) زبدة الحلب، ٤٩١.

(٣) مفرج الكروب، ج ٥ ص ١٤٨.

(٤) الملك المظفر محمود بن المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، كان بطلاً شجاعاً فطناً طيّب المفاكهة، غير أنه كان قليل الحظ مع جيرانه من الملوك، مرض في آخر حياته أكثر من سنتين، توفي في شهر جمادي الأولى سنة ٦٤٢ هـ. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٦ ص ٤٠٠).

"صاحب حمص"، وكان سبب الخلاف بين الملكين، أن الملك المظفر يريد أن يتنازل له الملك المجاهد عن "سَلَمْيَة[٢]" وقلعتها، فقال الملك المجاهد: هذه ثمينة وهي لي، وقد حلف لي المظفر على كل ما بيدي، وأبى أن يجيبه إلى ذلك، وقد تردد ابن العديم بين ملكي حماة وحمص في محاولة للصلح بينهما لكن مسعاه لم يؤت ثماره بسبب إصرار كل من الملكين على رأيه، ومع هذا لم ينس ابن العديم أن يؤكد على صاحب "حماة" أن "حلب" ليست طرفاً في الصراع القائم أو العدوان المحتمل بين صاحب حماة وصاحب حمص، مما دفع الملك المظفر أن يقول لابن العديم: "ولكن حلب، أبذل نفسي ومالي دون الوصول إلى قرية منها، ولا أرجع عن اليمين التي

---

(١) الملك المجاهد أسد الدين شيركوه (الثاني) بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ولد بمصر في سنة ٥٦٩ هـ، وملّكه صلاح الدين حمص بعد أبيه في سنة ٥٨١ هـ، فتملّكها ستاً وخمسين سنة، وكان ملكاً شجاعاً مهيباً ديّناً، توفي بحمص في شهر رجب سنة ٦٣٧ هـ. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٦ ص ٣٠٥؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ١٦ ص ١٢٧؛ الزركلي: الأعلام، ج ٣ ص ١٨٣).

(٢) سَلَمْيَة: بفتح أوله وثانيه، وسكون الميم، وتخفيف الياء، وهي بلدة صغيرة من أعمال حمص، ولا يعرفها أهل الشام إلا " سَلَمْيَّة "، وسبب التسمية أنه لما نزل العذاب بأهل المؤتفكة رحم الله منهم مائة نفس فنزحوا إلى تلك الناحية وعمّروها، فسُمّيت سَلِمَ مائة، ثم نطقها الناس سَلَمْيَة. (البكري: معجم ما استعجم، ج ٣ ص ٧٥١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ص ٣٤٠ – ٣٤١).

حلفتُ بها للسِّتر العالي، والملك الناصر[١]"، وهذه السّفارة تدل على مشاركة ابن العديم في الحياة السياسية، وتدخله للصلح بين الملوك، فلما استحال الصلح خرج بأفضل ما في إمكانه لصالح "حلب"، التي استبعدها تماماً عن دائرة الصراع القائم آنذاك بين مملكتي حماة وحمص.

أما السّفارة الخامسة فكانت إلى بلاد الروم، ففي سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م وصل رسول السلطان غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم إلى حلب، وطلب من الصاحبة ضيفة خاتون والدة الملك العزيز محمد رغبة كيخسرو في الزواج من بنت الملك العزيز، وأن يتزوج الناصر يوسف بن العزيز من أخت غياث الدين، فأجيب إلى ذلك، وتم عقد نكاح كيخسرو على ابنة الملك العزيز ونثر الذهب عند الفراغ منه، ثم توجه الصاحب كمال الدين بن العديم رسولاً إلى بلاد الروم لابرام عقد نكاح الملك الناصر يوسف على ابنة كيخسرو صاحب بلاد الروم، والجدير بالذكر أن ابن العديم حظى بحفاوة وتكريم من السلطان كيخسرو، ويدلل على هذا أن صاحب الروم كان قد عزم على التوجه إلى "مدينة قُوْنِية[٢]" آنذاك، فلما علم بقدوم ابن العديم توقف عن سفره إلى أن وصل ابن العديم واستقبله في شوال سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م، في يوم وصوله وأجابه إلى طلبه،

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، ص ٤٩٢.

(٢) قُوْنِية: بالضم ثم السكون، ونون مكسورة، وياء مثناة من تحت خفيفة، هي مدينة من أعظم مدن الإسلام ببلاد الروم، وتقع بين أنقرة وساحل البحر المتوسط، وبها وبقيصرية سكنى ملوك الروم. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٤١٥).

وعقد ابن العديم عقد نكاح الملك الناصر يوسف الأيوبي على أخت السلطان كيخسرو، ونثرت الدنانير الذهب والفضة في قصر السلطان غياث الدين، وسيّر ابن العديم بالبشارة إلى حلب، فضربت البشائر وأفيضت الخلع، وكانت عودة ابن العديم من هذه السفارة إلى حلب في التاسع من ذي القعدة من السنة[١].

ولقد علا نجم ابن العديم وصار محط أنظار البيت الأيوبي، لحنكته ورجاحة عقله وتمكنه من انجاز ما كان يكلّف به من مهام بين ملوك الأيوبيين تارة، وإلى بلاد الروم تارة أخرى، ولقد وصلت الثقة بابن العديم منتهاها، حتى إن الملكة ضيفة خاتون –صاحبة حلب– أرسلته رسولاً إلى القاهرة في سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م لتهنئة الملك العادل بن الكامل محمد لانتصاره على الفرنج عند "غزة[٢]"، وقتل جماعة منهم وأسر أخرى، كما

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، ص ٤٩٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٥ ص ١٨٥؛ ابن ايبك: الدّر المطلوب، ص ٣٣١.

(٢) غزّة: مدينة قديمة تقع على ساحل البحر المتوسط في أقصى جنوب الساحل الفلسطيني، بها ميناء للصيد، ويوجد بها عدة صناعات يدوية، بها كثير من المزروعات مثل: القمح والزيتون والموالح وغيرها من الزراعات، ولد بها الإمام الشافعي صاحب المذهب المشهور، وخرج منها جماعة من العلماء منهم: أبو عبد الله محمد بن عمرو بن الجراح الغزى المحدّث، روي عن مالك بن أنس رضي الله عنه، روي عنه أبو زرعة الرازي وغيرهما. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٢٠٣؛ د. يحيى شامي: موسوعة المدن العربية، ص ص ١٠٣ – ١٠٤).

تضمنت سفارة ابن العديم طلب الملكة صاحبة حلب من العادل –صاحب مصر– تسيير عمّاته بنات الملك العادل الكبير إلى حلب مع ابن العديم، وتصادف مع وجود ابن العديم في القاهرة اقصاء العادل بن الكامل عن عرش مصر وتسلطن الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاستدعى الملك الصالح ابن العديم وأظهر له الاحترام وللملكة صاحبة حلب وقال له: "تقبل الأرض بين يدي السّتر العالي، وتعرّفها أتى مملوكها وأنها عندي في محل الملك الكامل،... ومثل هذا القول إلى السلطان الملك الناصر[١]".

هذا ولم يكن الصاحب ابن العديم ينفّذ أوامر من أرسله فقط، بل كان يعمل الفكر ويتخذ ما يراه مناسباً من قرارات، فبعد أن أنهى سفارته للصالح نجم الدين أيوب بنجاح، عرّج في طريق عودته إلى دمشق، والتقى بالملك الصالح إسماعيل بن العادل، يقول ابن العديم: "فاجتمعت بالملك الصالح إسماعيل في رابع محرم سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠ م، وحمّلني رسالة إلى الملكة الخاتون، يطلب منها معاضدته ومساعدته على الملك الصالح – صاحب مصر– ... فلم تجبه إلى ذلك[٢]".

لم يكد ابن العديم يصل إلى حلب بعد سفارته إلى مصر أوائل سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠ م، حتى أعيد سفيراً إلى دمشق مستنجداً بصاحبها الملك الصالح إسماعيل، فقد عاث أمراء الخوارزمية فساداً بالبلاد الشامية،

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، ص ٥٠٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٥ ص ٢٥٣.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ص ٥٠٠.

ووصلت غاراتهم إلى حلب وأعملوا السلب والنهب والقتل، مما جعل الملكة أم العزيز محمد ترسل ابن العديم إلى أخيها الصالح إسماعيل –صاحب دمشق–، فاجتمع ابن العديم بالملك الصالح واستحلفه للملكة ولابن ابنها الناصر يوسف، وطلب منه ابن العديم نجدة من عسكره زيادة على ما كان منهم بحلب، فأجاب الملك الصالح إلى ذلك وسيّر نجدة من عسكره إلى حلب وذلك في جمادي الآخرة سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م، وهذه السفارة وغيرها من السفارات تبرهن على مشاركة ابن العديم في الحياة السياسية كواحد من أبرز كتّاب عصره، ولقد وفّق ابن العديم في جلّ مساعيه السياسية بين ملوك الأيوبيين تارة، وبين ملوك الأيوبيين وملوك الروم تارة أخرى، ودائماً ما كانت سفارات ابن العديم وغيره تسفر عن مصالحات بين الملوك أو تعاون عسكري واجتماعي، وكذلك تسويات ومبادلات لبعض أملاك الأمراء والملوك في داخل الدولة الأيوبية أو خارجها[١].

أما الفترة الباقية من عمر الدولة الأيوبية، فقد قلّت فيها السفارات، بل انقطعت بين ملوك الأيوبيين، وكثرت بينهم الخلافات، وأعطى كل ملك ظهره للآخر ويمموا وجوههم نحو الخارج، فقد تعاون ملوك حلب مع صاحب الروم –غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ– وانشغل الطرفان في دفع خطر المغول الذين بدأوا في مهاجمة الممالك الإسلامية الشرقية، كما تعاون الصالح اسماعيل –صاحب دمشق– مع الفرنج ضد الصالح نجم الدين أيوب في مصر وكثرت بينهما المعارك، مما أدى إلى ضعف قوة الدولة الأيوبية نتيجة الخلافات والتفكك والحروب، ومن ثم دالت الدولة

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٥ ص ٢٨٨.

الأيوبية بوفاة الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م، وبرزت قوة المماليك الناشئة في مصر سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م وأقاموا دولتهم وتمكنوا من دحر قوة المغول، واستعادوا السيطرة على بلاد الشام وغيرها من البلاد، وصارت القاهرة مركز الزعامة للعالم الإسلامي لاسيما بعد سقوط بغداد على أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ[١].

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٣ ص ١٧٨؛ ابن أيبك: الدّر المطلوب، ص ص ٣٤٧ –٣٧٥؛ د. نعمان الطيب سليمان: جهود المماليك في تصفية الوجود المغولي بالشام، مطبعة الحسين الإسلامية –القاهرة– سنة ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨ م.

الخاتمة

تميز العصر الأيوبي عن غيره بصبغة الجهاد المقدس ضد الوجود الصليبي في ديار الإسلام، لذلك اشتركت جميع فئات المجتمع في مجاهدة الأعداء بشتى الطرق والوسائل الممكنة، فقد أسهم العلماء والفقهاء بمؤلفاتهم ومواعظهم التي ترغّب في جهاد الصليبيين واخراجهم من ديار الإسلام، كما شارك الشعراء بقصائدهم الحماسية لنصرة الإسلام والمسلمين، هذا بالإضافة إلى طائفة كُتّاب الدواوين الذين شاركوا بآرائهم السياسية السديدة التي أخذ بها الحكام في كثير من الأحيان، ولقد أُفرِدت صفحات هذه الدراسة لجهود كُتّاب الدواوين في الحياة السياسية في العصر الأيوبي، هذا وقد خُلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

أولاً: أوضحت الدراسة مشاركة طائفة كبيرة من كُتّاب الدواوين في الحياة السياسية نتيجة لأعمالهم الديوانية الرسمية، ومن ثم قربهم من سلاطين العصر الأيوبي.

ثانياً: أثبتت الدراسة أن صلاح الدين اعتمد على طبقة الكُتّاب في التمكين لنفسه في مصر وبالتالي القضاء على الدولة الفاطمية، وذلك لإلمامهم بكثير من المعلومات الرسمية بدواوين الدولة المختلفة في العصر الفاطمي، لذلك بدأ صلاح الدين مرحلة التغيير والتمكين من خلالهم وما تبع ذلك من إقامة الدولة الأيوبية.

ثالثاً: بيّنت الدراسة أن سلاطين الأيوبيين حفظوا لطائفة الكُتّاب جهودهم في تأسيس الدولة الأيوبية، ومن ثم كان الحرص على تقريبهم

من دوائر الحكم واشتراكهم في مجالس الحرب والمشورة.

رابعاً:خلُصت الدراسة إلى أن كبار الكُتّاب في العصر الأيوبي كانوا رمانة الميزان عند وقوع الخلافات بين ملوك الأيوبيين، فكثيراً ما كان الكُتّاب هم الفيصل في انهاء المنازعات بين ملوك الأيوبيين، كما حدث بعد وفاة صلاح الدين من خلافات بين أبنائه في مصر و الشام، وكذلك مع عمهم الملك العادل كبير البيت الأيوبي.

خامساً: أثبتت الدراسة اعتماد سلاطين الأيوبيين على كبار الكُتّاب في إعادة ترتيب وتنظيم دواوين الدولة، كما حدث في عهد الملك الكامل محمد سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م، فقد اعتمد على أحد أكبر كُتّابه –وهو فخر الدين عثمان بن إبراهيم النابلسي– من أجل اصلاح الجهاز الإداري في دولته، فقدّم له النابلسي مشروعاً اصلاحياً للدواوين وهو كتابه المسمى: "لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية".

سادساً: بيّنت الدراسة الدور الفعّال الذي قام به الكُتّاب في السّفارة بين ملوك الأيوبيين في الداخل، وبينهم وبين ملوك الروم في الخارج، ولقد ظهر هذا الدور الإيجابي لتلك السفارات وانعكس على الدولة الأيوبية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وما نتج عن ذلك من الاستقرار وتوثيق العلاقات بين ملوك البيت الأيوبي وجيرانهم في الخارج.

"والحمد لله الذي بنعمة تتم الصالحات"

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

• ابن الأثير "أبو الحسن على بن أبي الكرم الشيباني المتوفي سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م":

١- الكامل في التاريخ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي –بيروت– الطبعة الأولى سنة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م (الأجزاء ٩ – ١٢).

• الأدفوي "كمال الدين جعفر بن ثعلب المتوفي سنة ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م":

٢- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق/ سعد محمد حسن، مراجعة د. طه الحاجري، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م.

• الإسنوي "جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي المتوفي سنة ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م":

٣- طبقات الشافعية، تحقيق/ كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية –بيروت– الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م (جزآن).

• الأصفهاني "عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني المتوفي سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م":

٤- البرق الشامي، تحقيق د. فالح حسين، مؤسسة عبد الحميد شومان –عمان- الأردن، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧ م، (٥ أجزاء).

٥- سنا برق الشامي (٥٦٢ هـ/ ١١٦٦ م – ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، اختصار الفتح بن علي البنداري من كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني)، تحقيق دكتورة/ فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٩٧٩ م.

٦- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم/ محمد محمود صبيح، قدم له د. حامد زيان غانم، الهيئة العامة لقصور الثقافة – سلسلة الذخائر ٩٠- سنة ٢٠٠٣ م.

- ابن ايبك "أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري":

٧- كنز الدّرر وجامع الغرر (الدّر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب)، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة سنة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧٢ م (الجزء ٧).

- البكري "أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي المتوفي سنة ٤٨٧ هـ":

٨- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، طبعة عالم الكتب – بيروت- الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٣ هـ (٤ اجزاء).

- ابن تغردي بردي "جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي المتوفي سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م":

٩- مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة، تحقيق د. نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧م، (جزآن).

١٠- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة وزارة الثقافة -الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة- سنة ٢٠٠٨م (الأجزاء ٦-٧).

- ابن الجوزي "أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد المتوفي سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م":

١١- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية -بيروت- الطبعة الأولى سنة ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م (الجزء ١٨).

- الحميري "أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم المتوفي سنة ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م":

١٢- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة -بيروت- الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠ م (الجزء الأول).

- ابن خلكان "شمس الدين أحمد بن محمد المتوفي سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م":

١٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية -القاهرة- الطبعة الأولى سنة ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨ م، (٧ أجزاء).

- أبو داود "سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفي سنة ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م":

١٤- سنن أبي داود، تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الفكر -بيروت- (المجلد الثالث).

- الذهبي "شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان المتوفي سنة ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م":

١٥- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي -بيروت- الطبعة الثانية سنة ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م (٥٢ جزء).

١٦- سير أعلام النبلاء، تحقيق د. بشار عواد معروف، د. محيى هلال السرجاني، مؤسسة الرسالة -بيروت- الطبعة السابعة سنة ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م، (٢٣ مجلداً).

١٧- العبر في خبر من غبر، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت -الكويت- الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤ م، (٤ أجزاء).

- أبو شامة "شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المتوفي سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦م":

١٨- الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق/ ابراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة -بيروت- الطبعة الأولى سنة ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م، (٥ أجزاء).

١٩- الذيل على الروضتين، عني بنشره/ السيد عزت العطار، دار الجيل- بيروت.

- ابن شداد "بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن شداد المتوفي سنة ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م":

٢٠- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق د. جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي-القاهرة- الطبعة الثانية سنة ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م.

- الصفدي "صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله المتوفي سنة ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م":

٢١- الوافي بالوفيات، تحقيق/ أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار احياء التراث -بيروت- سنة ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠ م، (الجزء الرابع).

- ابن عبد الحق "عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي المتوفي سنة ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨ م":

٢٢- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل -بيروت- الطبعة الأولى سنة ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١ م، (٣ أجزاء).

- ابن العديم "الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة الحلبي الحنفي المعروف بابن العديم المتوفي سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م":

٢٣- زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه خليل المنصور، دار

الكتب العملية –بيروت– الطبعة الأولى سنة ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م.

- ابن العماد "أبو الفلاح عبد الحيي بن العماد الحنبلي المتوفي سنة ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م":

٢٤– شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع –بيروت– (الجزء الرابع).

- ابن العمري "شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري المتوفي سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م":

٢٥– التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة –مصر– سنة ١٣١٢ هـ/ ١٨٩٤م.

- ابن العميد "المكين جرحس بن العميد":

٢٦– أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية –القاهرة.

- العيني "بدر الدين محمود العيني المتوفي سنة ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م":

٢٧– عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م، (الجزء الثالث).

- القرشي "عبد القادر بن محمد بن نصر الله الحنفي المتوفي سنة ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣ م":

٢٨- الجواهر المضية في طبقات الحنفية، الناشر مير محمد كتب خانة -كراتشي- باكستان، (الجزء الأول).

- القلقشندي "أبو العباس أحمد بن على القلقشندي المتوفي سنة ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م":

٢٩- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، قدم له د. فوزي محمد أمين، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية، الهيئة العامة لقصور الثقافة -القاهرة- سنة ٢٠٠٤ م، (الجزء الرابع والخامس).

- الكتبي "محمد بن شاكر الكتبي المتوفي سنة ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م":

٣٠- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة -بيروت-، الجزء الثالث.

- ابن كثير "أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفي سنة ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م":

٣١- البداية والنهاية، تحقيق د. أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث – القاهرة-الطبعة الخامسة سنة ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م، (المجلد السابع).

- المقريزي "تقي الدين أحمد بن علي المقريزي المتوفي سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م":

٣٢- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية -القاهرة- سنة ١٩٩٦ م، (٤ أجزاء).

٣٣- الخِطط المقريزية، تحقيق د. محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي –القاهرة- الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧ م، (الجزء الثاني).

٣٤- السلوك لمعرفة دول الملوك، قام بنشره د. محمد مصطفى زيادة، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة –القاهرة-.

٣٥- المقفي الكبير، تحقيق/ محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي – بيروت- الطبعة الأولى سنة ١٤١١ هـ/ ١٩٩١، (٧ أجزاء).

- ابن ممّاتي "الأسعد بن مهذب بن زكريا الكاتب المصري المتوفي سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م":

٣٦- كتاب قوانين الدواوين، جمعه وحققه/ عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي –القاهرة-.

- النابلسي "فخر الدين عثمان بن إبراهيم النابلسي المتوفى سنة ٦٨٥هـ ":

٣٧- كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية، مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة.

- النويري "شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفي سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢ م":

٣٨- نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة- سنة ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م، (الأجزاء ٢٨ -٣١).

- الهمداني "أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان المتوفي سنة ٥٨٤هـ":

٣٩- ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأماكن، تحقيق/ حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة –البحرين- سنة ١٤١٥ هـ (الجزء الأول).

- ابن واصل "جمال الدين محمد بن سالم المتوفي سنة ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧ م":

٤٠- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال، د. حسنين محمد ربيع، راجعه د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار القلم – القاهرة- (٥ أجزاء).

- ابن الوردي "عمر بن مظفر بن عمر بن محمد المتوفي سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨ م":

٤١- تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية –بيروت- الطبعة الأولى سنة ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م، (جزآن).

- اليافعي "أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكي المتوفي سنة ٧٦٨ هـ":

٤٢- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه/ خليل المنصور، دار الكتب العلمية –بيروت- الطبعة الأولى سنة ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م، (٤ أجزاء).

- ياقوت "أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي المتوفي

سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م":

٤٣- معجم الأدباء، "ارشاد الأريب بمعرفة الأديب"، تحقيق/ احسان عباس، دار الغرب الإسلامي -بيروت- الطبعة الأولى سنة ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م، (٧ أجزاء).

٤٤- معجم البلدان، دار صادر -بيروت- سنة ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م، (٥ أجزاء).

ثانياً: المراجع

- آمنة إبراهيم أبو حجر:

٤٥- موسوعة المدن العربية، دار أسامة للنشر -الأردن- الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣ م.

- حسان حلاق وآخر:

٤٦- المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين -بيروت- الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩ م.

- حسنين محمد ربيع (دكتور):

٤٧- النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، سنة ١٩٦٤ م.

- الزركلي "خير الدين بن محمود بن محمد بن على الزركلي الدمشقي المتوفي سنة ١٣٩٦ م":

٤٨- الأعلام، دار العلم للملايين -بيروت- الطبعة الخامسة عشر سنة ٢٠٠٢ م.

- ستانلي لين بول:

٤٩- تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة وتحقيق وتعليق/ أحمد

سالم سالم، مراجعة وتقديم د. أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية – القاهرة– الطبعة الأولى سنة ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤ م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):

٥٠– الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية – القاهرة– سنة ٢٠٠١ م.

- شفان ظاهر عبد الله الدوسكي:

٥١– الملك الأفضل علي بن صلاح الدين الأيوبي، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع –دمشق– الطبعة الأولى سنة ٢٠١٢ م.

- عبد المنعم ماجد (دكتور):

٥٢– ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربي – القاهرة– الطبعة الرابعة سنة ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م.

- علي محمد الصلابي (دكتور):

٥٣– صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، المكتبة العصرية –بيروت– الطبعة الأولى سنة ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣ م.

- قاسم عبده قاسم، علي سيد علي (دكتوران):

٥٤– الأيوبيون والمماليك "التاريخ السياسي والعسكري"، عين للدراسات

والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٦ م.

- مصطفى عبد الكريم الخطيب:

٥٥- معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة –بيروت– الطبعة الأولى سنة ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م.

- نظير حسان سعداوي (دكتور):

٥٦- التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية –القاهرة– سنة ١٩٥٧ م.

- نعمان الطيب سليمان (دكتور):

٥٧- جهود المماليك في تصفية الوجود المغولي بالشام، مطبعة الحسين الإسلامية –القاهرة– سنة ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨ م.

- يوسف حسن غوانمة (دكتور):

٥٨- معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، دار الفكر – عمان– الأردن، الطبعة الأولى سنة ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م.

محتويات البحث

العنوان

١- المقدمة.....

٢- المبحث الأول "نبذة عن الوظائف الديوانية في العصر الأيوبي ".....

٣- المبحث الثاني " الدور السياسي لكُتَّاب الدواوين في العصر الأيوبي".....

٤- المبحث الثالث "دور كُتَّاب الدواوين في السّفارة في العصر الأيوبي ".....

٥- الخاتمة.....

٦- فهرس المصادر والمراجع.....

٧- محتويات البحث.....